المعاني

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م
جميع حقوق الطبع محفوظة

الكويت - مدينة سعد العبدالله - مقابل الدائري السادس - ق ٣م٢٨
Website: www.adahriah.com
E-mail: adahriah@yahoo.com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398 - (+966) 559221028

المعاني

تأليف الأساتذة الأفاضل

إبراهيم مصطفى　　محمد عطية الإبراشي　　محمود السيد عبد اللطيف

عبد المجيد الشافعي　　محمد أحمد برانق

راجعه الأساتذة الأفاضل

الدكتور طه حسين بك　　محمد أحمد جاد المولى بك　　أحمد أمين بك

دار الظاهرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحیم

البلاغـــة

إذا عَرَضَ لك موضوعٌ فعرفتَ ما يقتضيه المقامُ من المَقالِ ، وقلتَ فيه من الكلام ما يحسُن أن يُقَالَ فى مثله ، واخترتَ للمعانى من الألفاظ والجُمَلِ والأساليبِ ما يتناسبُ وعقولَ القارئينَ والسامعينَ وشعورَهم وذوقهم ، فتلك هى البلاغة .

فهى كما ترى تَتَطَلَّبُ :

(١) عِلْماً بالموضوع الذى نريدُ الكلامَ أو الكتابةَ فيه .

(٢) مَعْرِفَةً بعقليَّةِ المخاطبينَ وشعورِهم وذَوْقهم .

(٣) أن نختار من تلك المعانى ما يتَّفِقُ وهذه العقليَّةَ والشعورَ والذوق.

(٤) أن تتخيَّر للمعانى ما يليقُ بها من الألفاظ .

والعلمُ الذى يشرحُ هذه المسائلَ كلَّها يُسَمَّى : عِلْمَ البلاغةِ

وعلمُ البلاغةِ هذا يَعْتَمِدُ على عِلْمَىِ النحوِ والمنطِقِ ، فيجبُ مراعاةُ ما يأتى :

أولاً — أن تكونَ العبارةُ صحيحةً جاريةً على قوانينِ النحو والصرف ، ثم تأتى البلاغة فتتطلَّبُ أن تكون الألفاظ مُنتَقاةً ، والجملُ مختارةً .

ثانياً — أن تكون الأفكارُ مَنْطِقِيَّةً مُتَسَلسِلَةً ، ثم تأتى البلاغةُ فتطلُب أن تكون المعانى واضحةً ، وأن تكونَ مناسبةً لعقول السامعينَ والقارئين .

ثم عِلْمُ البلاغةِ يَعْتَمِدُ — أيضاً — فى كثير من مبادئه وتعاليمه على علم النفس ، فقد ذكر علماءُ النفس — مثلاً — أن للإنسان قُوًى ثلاثاً : قُوَّةَ العقل ، وقوةَ الشعور ، وقوةَ الإرادة .

فقوةُ العقل بها يَعْقِلُ الإنسانُ ويَعْلَمُ ويُفكِّرُ . وعَمَلُ البليغ إزاءَ هذه القوةِ هو أن يوصِّلَ المعانِىَ إلى ذهن السامع أو القارىء على أحسن وجه وأوضَحِهِ وأجمله . وأكثرُ ما يتَجَلَّى ذلك حين يتعرَّض الكاتبُ أو المتكلمُ لشرح نَظَرِيَّةٍ علمية ، أو شرح أحداثٍ تاريخيةٍ .

وقوةُ الشعور هى التى بها يَشْعُرُ ويتخيَّلُ . والكلام البليغ الذى يُوجَّهُ إلى هذه القوة لا يُقْصَدُ منه الإفهامُ والإيضاحُ فَحَسْبُ ، بل يُقْصَدُ منه أيضاً إثارةُ الشُّعُور وتهييجُهُ ، ومَلْؤُه بالقوة والنشاطِ . وأوضحُ مثَلٍ على ذلك فى باب الأدب الخُطَبُ والشعرُ ، فلهما عناية خاصة بقوَّةِ الشعورِ .

وقوةُ الإرادةِ هى القوةُ التى توَجِّه الحياةَ ، وتُحوِّل الفكرَ أو العقيدةَ إلى عمل . وعملُ البليغ إزاءَ هذه القوةِ أن يجعلَ السامعَ أو القارئَ يعتقد ويعملُ ما يعتقد ، وأن يتوجَّهَ إلى القوة العاقلةِ والقوةِ الشاعرةِ يَسْتَحِثهما

على العمل . وأوضحُ مثل لذلك الخطابةُ أيضاً ، فخيرُ الخطباءِ مَنْ جعل سامعيه يعتقدون ما يدعو إليه ، ثم يندفعون للعمل وفق ما يعتقِدون .

والبلاغةُ لها حظٌّ من العلم ، وحظ من الفَنِّ ، ونَعنِي بالعلم ما يشرح النَّظريات بقَطعِ النظر عن استِخدامها العَمَلِيِّ ، ونعنى بالفن الناحية العملية للنظرية . فالبلاغةُ تشرحُ النظرياتِ التى تجعل الكلامَ بليغاً ، وهى من هذه الناحيةِ علمٌ ، وهى من ناحية التطبيق والتَّمرين على الإتيان بالكلام البليغ وفقَ النظرياتِ فنٌّ .

وهى — ككلِّ فن — تَحتاجُ الى استِعدادٍ فِطريٍّ ؛ فالناس مُنِحوا الاستعدادَ للإتيانِ بالكلام البليغِ بأقدارٍ مُتفاوتةٍ ، ثم هذا الاستعدادُ الفطرىُّ لا يكفى وَحدَه ، بل لا بُدَّ معه من مَرانةٍ حتى تنموَ هذه المَلَكاتُ الفطريةُ خيرَ نُموٍّ ، وتصِلَ إلى أقصى درجةٍ يهيئُها لها استعدادُها .

وهذه البلاغةُ — كما قَدَّمنا — تعتمِدُ على الألفاظِ والمعانى .

فأولُ واجبٍ على الكاتب أو الشاعرِ أو الخطيبِ اختيارُ الألفاظِ التى تدلُّ على المعنى الذى يُريدُه ، وهذا يَتطلَّبُ منه أن يكونَ على علم تامٍّ بمعانى الألفاظِ ، ثم يختارُ منها ما يَتَّفق هو والمعنى الذى يريده فى دِقة وضَبطٍ ، فقد يكونُ بعضُ الألفاظِ أوضحَ من بعض ، وبعضُها

أبعثَ للارتياح من بعض ، وبعضُها أقوَى من بعضٍ ، وهذا يتطلب أن يختارَ من المترادفات أنسبَها للموضوع — ونَعْنِي بالمترادفاتِ الكلماتِ المختلفةَ ذوات المعنى الواحدِ ، وكثيرًا ما تكون الكلمةُ من المترادفات أليقَ بالموضوع من غيرها ، وتُثير فى النفسِ مشاعرَ لا تثيرها غيرُها .

ولعل هـــذا هو السببُ فى أن بعضَ علماء اللغة أنكروا وجودَ للمترادفاتِ فى اللغة ، وقالوا إن كل ما يُظَنُّ من المترادفات فى اللغة ليست معانيها متساويةً ، بل بينهـا فروقٌ وإن دقَّتْ ، كالسيفِ ، والمهنَّدِ ، والحُسامِ ، ومَضى ، وذهَبَ ، وانطلَقَ .

والذى نُريد أن نبيِّنَه فى هذا الموضعِ ؛ أنَّ اللفظةَ من هذه المترادفاتِ قد تفضُل لَفْظةً أخرى فى موضعٍ من المواضع ؛ لأن جَمالَ النَّظْمِ ، أو السَّجْعِ أو الجِناس ، أو أىِّ نوعٍ من أنواع البديعِ يقتضيها ، أو لأن أحد الألفاظِ أجلى وأوضحُ ، أوأقوى وأوقعُ . وكثيرًا ما يَرَى الكاتب أنَّ رنينَ الكلمةِ لا يوافقُ ورنينَ الكلمات الأخرى فى الجملة ، وذَوْقُ الكاتبِ فى ذلك هو الحُكمُ ، فكل كاتبٍ يشعُر أحيانًا أنّ لفظةً قَلِقةً فى مكانها ، ثم يَستَعْرِضُ فى ذِهنه المرادفاتِ لها ، حتى إذا عثَر على كلمة قال إنها هى هى ولا شىء غيرُها يَحُلُّ محلَّها .

كذلك الشأنُ فى المعانى ، فقد تكون راقيةً أو غيرَ راقيةٍ ، وافيةً أو غيرَ وافيةٍ ، واضحةً أو غامضةً ، مُتَسلْسِلةً أو غيرَ متسلسلةٍ ، موافِقةً

لموضوعها أو غيرَ مُوافقةٍ . والبلاغةُ تُعلِّم الكاتب كيف يختار معانِيَه ، وكيف يَعرِضها على السامع أو القارئ .

ثم إن هذه الألفاظ وهذه المعانى قد تكون فى ذاتها جيدةً ، ولكنها لا تُناسِب عقولَ القارئين ومشاعرَهم وأذواقهم ، فلا يكون الكلامُ — إذاً — بليغاً ، إنما يكون بليغاً إذا طابَقَ مُقتَضَى الحال ، وناسَبَ الموضوعَ ، ومُستوَى المخاطَبين .

* * *

فالتَّوْفيقُ فى اختيارِ الألفاظِ والمعانى ، والحِذقُ فى انتقائِها حتى تطَابِقَ مُقتضَى الحالِ ، وحتى تُناسبَ المخاطَبينِ — هو ما نعنى بالبلاغة .

وَلْنَعْرِض لك الآنَ بعضَ أقوالِ الأقْدَمين ، ففيها إيضاحٌ لِمَا أردنا ، وتَفْصيلٌ لِمَا أجْمَلْنَا .

(١) قال قُدامةُ بنُ جَعفرٍ فى كتابه نَقدِ النثر : « وحَدُّها عندنا أنَّها القولُ المحيطُ بالمعنى المقصودِ ، مع اختيارِ الكلام ، وحُسنِ النظامِ ، وفصاحةِ اللسانِ ؛ وإنما أضَفْنا إلى الإحاطةِ بالمعنى اختيارَ الكلام ؛ لأن العامِّىَّ قد يُحيطُ قوله بمعناه الذى يريده ، إلا أنه بكلامٍ مرذولٍ من كلام أمثالِه ، فلا يكون موصوفاً بالبلاغة . وزدنا فصاحةَ اللسانِ ، لأن الأعْجَمِىَّ واللحَّانَ قد يبلغان مرادَهما بقولهما ، فلا يكونان موصوفين بالبلاغة . وزدنا حُسنَ النظام ؛ لأنه قد يَتكلَّم الفَصيحُ بالكلام الحسن الآتى على المعنى ،

ولا يُحسِنُ ترتيبَ ألفاظه ، وتَصْييرَ كلِّ واحدةٍ منها مع ما يشاكلها ، فلا يقع ذلك مَوقِعَه . » اهـ

(٢) وقال: « البلاغةُ ثلاثةُ مذاهب : المساواةُ ؛ وهو مُطابقةُ اللفظِ للمعنى لا زائداً ولا ناقصاً . والإشارة ؛ وهو أن يكون اللفظُ كاللَّمحَةِ الدالةِ . والتَّذييلُ ؛ وهو إعادةُ الألفاظِ المترادِفة على المعنى الواحد ، ليظهرَ لمَن لم يفهمه ، ويَتأكَّدَ عند مَن فَهِمه . »

(٣) وسأل معاويةُ بنُ أبى سُفيانَ صُحَارًا العَبْدِىَّ : ما البلاغةُ ؟ قال : « أن تُجيبَ فلا تُبْطِئَ ، وتُصيبَ فلا تُخطِئَ . »

(٤) وقال الفَضْلُ : « قلتُ لأعرابىٍّ ما البلاغةُ » ؟ قال : « الإيجازُ فى غير عَجْزٍ ، والإطنابُ فى غير خَطَلٍ . »

(٥) وقيل لجعفرِ بنِ يحيى : « ما البيانُ ؟ » فقال : « أن يكون اللفظُ محيطاً بمعناكَ ، كاشفاً عن مَغْزاكَ . وتُخرِجَه[1] من الشَّرِكةِ ،

---

(١) معنى قوله : « وتخرجه من الشركة » ألا تأتى فى الدلالة على المعنى بعبارة لاتدل عليه خاصة ، بل تشترك معه فيها معان أُخَر ، فلا يعرف السامع أيّها أراد ، كقول جرير :

لو كنتُ أعلمُ أنّ آخرَ عَهدِكم يومُ الرّحيل فعلتُ ما لم أفعل

فإن السامع لايدرى ما كان يود أن يفعله : أيبكى لارتحالهم ، أم يتبعهم ، أم يمنعهم من السفر الذى اعتزموه ، أم غير هذا مما يفعله من غاب عنه أحباؤه ؟

ولا تستعين عليه بطول الفِكْرةِ ، ويكونَ سالماً من التكلُّف ، بعيداً من سوء الصَّنْعةِ ، بريئاً من التعقيد ، غَنِيًّا عن التأمُّلِ . »

(٦) ولِابنِ المُعْتَزِّ : « أبلَغُ الكلامِ ما حَسُنَ إيجازه ، وقلَّ مجازه ، وكَثُرَ إعْجَازُه ، وتناسَبَتْ صُدُوره وأَعْجَازُه[1] . »

(٧) وسمع خالدُ بنُ صَفْوانَ رجلاً يتكلم ويُكْثرُ الكلام ، فقال : « اعلم (رحمك الله) أن البلاغة ليست بخِفَّةِ اللسان ، وكثرة الْهَذَيان ، ولكنها بإصابة المعنى ، والقَصْدِ إلى الحجة[2] . »

(٨) ولِبِشْرِ بن الْمُعْتَمِرِ فيما يجب أن يكون عليه الخطيب والكاتب رسالة من أنفس الرسائل الأدبيـة البليغة ، جمعت حدود البلاغة ، وصَوَّرَتْها أَحْسَنَ تصوير ، وسنذكر مع شيء من الإيجاز ما يتصل منها بموضوعنا ، قال :

« خُذْ من نفسك ساعَةَ نشاطِكَ ، وفراغِ بالِكَ ، وإجابتها إياكَ ؛ فإن قليلَ تلك الساعة أَكْرَمُ جَوْهَرا ، وأشرفُ حسبا ، وأَحْسنُ فى الأسماع ، وأَحْلى فى الصُّدُور ، وأَسْلَمُ من فاحش الخطأ ، وأَجْلبُ لكل عَيْنٍ وغُرَّة : من لفظ شريف ، ومَعْنًى بديع . واعلم أن ذلك أَجْدَى عليك مما يُعْطيك يَوْمُكَ الأَطْوَلُ بالكَدِّ والمُطاوَلَة والمجاهَدَة ، وبالتكلُّف والمعاودة .

---

(١) نهاية الأرب جزء ٧ ص ١١ . (٢) مختار العقد ص ٩٨ .

وإياك والتوعُّرَ[١] ؛ فإن التوعرَ يُسْلِمكَ إلى التعقيد ؛ والتعقيدُ هو الذى يَسْتَهلك معانيكَ ، ويَشين ألفاظَك . ومن أراد معنى كريماً فَلْيَلْتَمِس له لفظا كريما ، فإن حَقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويُهَجِّنُهُما . . .

وكن فى ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث أن يكون لفظُكَ رشيقاً عذباً ، وفَخْماً سهلاً ، ويكونَ معناك ظاهرًا مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، إمَّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قَصَدْت ، وإما عند العامة إن كنتَ للعامة أَرَدْت . والمعنى ليس يَشْرُفُ بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يَتَّضِعُ بأن يكون من معانى العامة . وإنما مدارُ الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظُ العامِّىُّ والخاصِّى . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مَداخلك ، واقتدارك على نفسك — على أن تُفْهِمَ العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسِطَةَ[٢] ، التى لا تَلْطُفُ عن الدَّهْمَاء ، ولا تَجْفُو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تَعْتَرِيك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك ، وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظةَ لم تقع مَوْقِعَها ،

---

(١) التوعر : التعبير بالألفاظ التى يصعب فهمها .

(٢) التى فوق السهل ودون الصعب .

ولم تصل إلى قرارِها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافيةَ لم تَحُلَّ فى مركزها وفى نصابها ، ولم تصل بشكلها ، وكانت قَلِقَة فى مكانها ، نافرةً من موضعها — فلا تُكْرِهْها على اغتصاب الأماكن ، والنزول فى غير أوطانها ؛ فإنك إذا لم تتعاطَ قَرْضَ الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يَعِبْكَ بترك ذلك أحد . وإن أنت تَكَلَّفْتَهُ ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ، ولا مُحْكِماً لسانَك ، بصيرًا بما عليك أو مَالَك — عابك من أنت أقلُّ عيباً منه ، ورأى من هو دونَكَ أنَّهُ فوقك .

فإن ابْتُلِيتَ بأن تتكلفَ القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى أول وَهْلَة ، وتَعَصَّى عليك بعد إجالة الفِكْرة ، فلا تَعْجَلْ ولا تَضْجَر ، ودعه بياض يومك أو سَواد ليلك ، وعاوِدْهُ عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تَعْدَمُ الإجابةَ والمُواتاةَ ، إنْ كانت هناك طَبيعةٌ ، أو جَرَيْتَ من الصناعة على عِرْقٍ .

فإن تَمَنَّع عليكَ بعد ذلك من غير حادثِ شُغْلٍ عَرَض ، ومن غير طولِ إهمالٍ — فالمنزلةُ الثالثةُ أن تتحوَّلَ من هذه الصناعةِ إلى أشهى الصناعاتِ إليك ، وأَخَفِّها عليك . . . . لأن النفوسَ لا تجودُ بمَكْنونِها مع الرَّغْبَةِ ، ولا تَسمحُ بمخزونِها مع الرَّهْبَة ، كما تَجُودُ به مع المحبَّة والشهوةِ . فهكذا هذا .

وينبغى للمتكلم أن يعرفَ أقدارَ المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالاتِ ، فيجعلَ لكل طبقةٍ من ذلك كلاماً ، ولكل حالةٍ من ذلك مَقامًا ، حتى يُقسِّمَ أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدارَ المعانى على أقدار المقاماتِ ، وأقدار المُستَمِعين على أقدار تلك الحالات . »

قال الحسَنُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ سهلٍ العَسْكرىُّ فى كتاب الصِّناعَتَيْنِ : « الكلام — أيَّدكَ الله — يحسُن بسلاسته ، وسهولتِه ونَصاعتِه وتَغيُّر لفظِه ، وإصابةِ مَعْناه ، وجَوْدةِ مَطالِعِه ، ولِينِ مَقاطِعه ، واستواءِ تقاسيمه ، وتعادُلِ أطرافِه ، وتشابُهِ أعجازِه بهَوادِيه ، ومُوافقةِ مآخيرِه لمَباديه ، مع قِلَّةِ ضَروراتِه ، بل عدمِها أصلاً ، حتى لا يكونَ لها فى الألفاظ أثَرٌ ، فتَجد المنظومَ مثلَ المنثور فى سهولة مَطلَعِه ، وجَودةِ مَقطَعِه ، وحسنِ رصفِه وتأليفِه ، وكمالِ صَوْغِه وتركيبه ، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقَبول حقيقاً ، وبالتحفُّظِ خليقاً — كقول الأول :

هُمُ الأُلَى وهَبوا للمَجدِ أنفُسَهم فما يُبالون ما نالوا إذا حُمِدُوا

وقولِ الآخر :

ولستُ بنَظَّارٍ إلى جانبِ الغِنَى إذا كانت العَلْياء فى جانب الفَقْرِ

وقول النابغة :

ولستَ بُمستَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ أىُّ الرِّجال المُهذَّبُ

فإذا كان الكلامُ قد جمع العذوبةَ والجزالةَ ، والسهولةَ والرَّصانةَ مع السلاسَةِ والنَّصاعةِ ، وسلِم من حَيْفِ التأليف ، وبعُدَ عن سماجة التركيبِ ، وَوَرَدَ على الفَهْمِ الثاقب ، قَبِلَه ولم يرُدّه ، وعلى السَّمْعِ المُصيبِ اسْتوْعَبَه ولم يُمُجَّه . والنفسُ تقبل اللطيف ، وتَنْبُو عن الغليظِ . . .

والفهم يَأْنَسُ من الكلام بالمعروف ، ويسكُنُ إلى المَأْلوفِ ، ويُصغِي إلى الصواب ، ويهرُب من المُحالِ . . . ولا يقبَلُ الكلامَ المُضْطَرِبَ إلا الفَهْمُ المضطربُ ، والرَّوِيَّةُ الفاسدةُ . » اهـ

ولا خيرَ فى المعانى إذا استُكرِهَت قهرًا ، والألفاظِ إذا اجْتُرَّت قَسْرًا ، ولا خيرَ فيما أُجيدَ لفظُه إذا سَخُف معناه ، ولا فى غرابة المعنى إلا إذا شَرُف لفظُه ، مع وضوحِ المَغزَى ، وظهورِ المَقْصِد .

وقد غلَب الجهلُ على قومٍ فصاروا يستجيدون الكلامَ إذا لم يَقِفوا على معناه إلا بكَدٍّ ، ويَستَفْصِحُونه إذا وجدوا ألفاظَه كَزَّةً غليظة وجاسِيَةً غريبةً ، ويَستحقِرون الكلامَ إذا رَأَوْه سلِساً حُلوًا ، وعَذْباً سَهلاً ، ولم يعلموا أن السهل أمنعُ جانباً ، وأعزُّ مَطلَباً ، وهو أحسنُ مَوقِعاً ، وأعذبُ مستَمعاً ، ولهذا قيل : «أجودُ الكلام السهلُ المُمْتَنِعُ .»

وصفَ الفضلُ بنُ سهلٍ عمرَو بنَ مَسْعَدةَ ، فقال : « هو أبلغُ الناس ، ومن بلاغته أن كلَّ أحدٍ يظُنُّ أنه يكتبُ مثلَ كُتُبِه ، فإذا رامَها تعذَّرت عليه . » اهـ

وبعد ؛ فقد نقلتُ لك ما ذكره صاحبُ الصناعتين فى إيجازٍ ، لتتبيَّن أنَّ جمال الكلام وبلاغتَه لا يكونان إلا من ناحيتين :

(١) ناحية المعنى ، بأن يكون حَسَناً مقبولًا ، مَدلولًا عليه بما يُوضِّحُه.

(٢) ناحية اللفظِ ، بأن يكون مُتخيَّرًا متناسِقاً ، قد وُضِعت كل لَفظةٍ منه فى مكانها المناسِب ، وارتبَطَت بما قبلها وما بعدها ارتباطَ أُخُوَّةٍ وأُلفَةٍ وتَناسب ، فى غير زيادةٍ مُمِلَّةٍ ، ولا نقصٍ مُخِلّ .

مراتب البـــلاغةِ

وللكلام البليغ مراتبُ : أعلاها ما يَصِلُ إلى حَدِّ الإعجازِ أو ما يقرُب منه ، مما يَتَبَيَّنُه الأدباءُ فى كلام الله تعالى وكلامِ رسولِهِ الكريم. ودون ذلك مراتبُ كثيرةٌ تتفاوتُ فيها أقدارُ البُلَغاءِ ، من الكُتَّابِ والشعراءِ ورجال الأدبِ ، وكما يفضُلُ النَّسجُ النسجَ ، والصياغةُ الصياغةَ ، ويعظُم الفضلُ فى ذلك ، وتكثر المَزِيَّةُ ، حتى يفوقَ الشىءُ نظيرَه والمُجانسَ له درجاتٍ كثيرةً ، وتتفاوتُ القِيَمُ تفاوُتاً شديداً — كذلك يفضل بعضُ الكلام بعضاً ، ويترَقَّى منزلةً فوق منزلةٍ ، لخصائصَ تصادفها فى سِياق لفظه ، ورِقَّةِ معانيه .

ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بالنظرِ فى كلام العربِ ، وتَتَبُّعِ أشعارِهم ، ودِراسةِ مَزايا القولِ ، يُعينُك فى ذلك ذوقٌ تُنَمِّيهِ بكثرة الاطلاعِ ،

وتَذَوُّقِ فنونِ الأدب ، ودراسة علومِ البلاغةِ ؛ لتتعرَّفَ فيها تلك الخصوصياتِ التى تُكسِبُ الكلامَ فخامةً وجَمالاً .

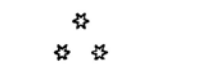

وبعدُ ؛ فأنتَ ترى مما تقدَّمَ أن حَدَّ البلاغة : هو أن تجعلَ لكل مقام مقالا ، فتُوجِزَ حيث يحسُنُ الإيجازُ ، وتُطنِبَ حيث يجمُل الإطنابُ ، وتُؤَكِّدَ فى موضع التوكيدِ ، وتُقدِّمَ أو تؤخرَ إذا رأيتَ ذلك أَنْسَبَ لقولك ، وأَوْفى بغَرضِك ، وتخاطِبَ الذكىَّ بغير ما تخاطِبُ به الغبىَّ ، وتجعلَ لكل حالٍ ما يناسبها من القولِ ، فى عبارةٍ فصيحةٍ ، ومعنى مُختارٍ .

وستَرى فى الأمثلةِ الآتيـة صُوَرًا من الكلام ، صُوِّرَ فيها القولُ تصويرًا مناسباً للمعنى ، وطابَقَ مُقتضَى الحالِ .

أمثلةٌ لمطابقةِ الكلام لمقتَضَى الحالِ

(١) إذا أردتَ أن تَنْفِيَ عن نفسك فِعلَ شيءٍ من غير أن تُشير إلى أنَّ غيرَكَ فَعَلَه ، قلتَ : « ما فعلتُ . » فإذا أردتَ أن تشير إلى أن غيرك فَعَلَه ، تقول : « ما أنا فَعَلتُ . » فأنتَ قد جعلتَ لكل معنًى من هذين مقالًا على وَفْقِه ، وطابَقْتَ بقولك مُقْتَضَى الحالِ .

(٢) قال تعالى فى سورة الجِنِّ :

«وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا.»

فِعل الإرادةِ جاء مع الشرِّ على صورة المَبْنِيِّ للمجهول ، ومع الرَّشَد على صورةِ المبنيِّ للمعلومِ ، والحالُ الداعيةُ إلى بناء الأولِ للمجهولِ — التأدُّبُ فى جانبِ الله تعالى بعدم نِسبَةِ الشرِّ صراحةً إليه ، وإن كان الخيرُ والشرُّ مما قدَّره الله تعالى وأرادَه .

(٣) إذا قلتَ : « عَلَى اللهِ أعْتَمِدُ . » فقد أردتَ أن تقصُرَ اعتمادَكَ على الله وَحدَه ، ودَلَلْتَ على ذلك بتقديم «على الله» على الفِعل « أعتمِدُ » ولو قلتَ : « أعتمدُ على اللهِ » لم يكن فى قولك ما يدل على قصْرِ اعتمادِك على الله ، فإرادةُ القَصرِ — على أبسَطِ الصور الدالَّةِ عليه — حالٌ دَعَت إلى تقديم الجار والمجرور على الفعل .

وستَجدُ ذلك وأمثالَه مُفَصَّلًا فى أبواب علم المعانى إن شاء الله .

أمثلة للكلام البليغ وتحليلُ ذلك ونقدُه

(١) قال الله تعالى فى الرَّدِّ على مَن أنكرَ البعثَ : « وَضَرَبَ لنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ، أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَى وَهُو الخَلّاقُ العَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. »

تناولت هذه الآياتُ الكريمةُ إثباتَ البعث ، والردَّ على مَن أنكره فى أبلغ صورةٍ وأوفى حُجَّةٍ ، وقطعت على المُنكِرين سبيلَ الدِّفاع عن رأيهم الباطلِ ، وحُجَّتِهم الدَّاحضةِ ؛ فإن القادرَ على بَدْء الخلقِ لا يُعجِزُه أن يُعيدَه ؛ لأنّ الإعادةَ ليست بأصعبَ عند ذوى العقولِ من الابتداء . وقد زاد الله هذه الحجةَ قوةً ووضوحاً ، فذكَّرهم بقدرته على إخراج النارِ مما ينبُتُ من الماء ، والماءِ والنارُ صِنْوان ، فمَن قَدَر على ذلك فليس بمُنكَر عليه أن يعيدَ ما أفناه . ثم قوَّى هذه الحجةَ وزادها شرحاً ، وبلَغ بها غايةَ الإيضاحِ والتوكيدِ بما نبَّه إليه ؛ من أن إعادةَ

الناس بعدَ الموتِ ليست أصعبَ من خَلقِ السمواتِ والأرضِ ابتداءً. وفى ذلك يقول الله تعالى فى آية أخرى :

« لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . »

ثم أثبت سبحانه وتعالى لنفسه القدرةَ المُطلَقةَ ، والإرادةَ النافذةَ فى قوله تعالى :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . » ودَلَّ على أنَّ كلَّ المخلوقات مِلكُه ، وأن مصيرَ الناس إليه بقوله : « فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . » فما تَرَكَ زيادةً لمُستزيدٍ ، ولا حجةً لمُعاندٍ مُكابِرٍ . وهذا النوعُ من البلاغة لا تصل إليه قُدرةُ الناسِ وإن اجتَمعوا له :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . »

(٢) قال بعضُ الكُتَّابِ يمدحُ أميرًا :

« مِثْلُك أوجَبَ حقًّا لا يجب عليه ، وسمَحَ بحَقٍّ وجَبَ له ، وقَبِلَ واضِحَ العُذْرِ ، واستَكْثَرَ قليلَ الشُّكرِ ، لا زالت أياديك فوقَ شُكر أولِيائِك ، ونِعمةُ الله عليكَ فوقَ آمالِهم فيكَ . »

فانظر كيف وصفَ ممدوحَه ، فأجاد صفتَه ؛ فهو كريم يرى العطاءَ فَرْضاً ، ويتجاوزُ عما وجب له من الحقوق ، ويقبلُ عُذْرَ المعتَذِرِ ، ويرى ما قَلَّ من الشكر كثيراً فى جَنْبِ عطائِه .

ثم هو بعد ذلك يدعو لِلْمَمْدُوح أن تكون نِعَمُه دائمةً لأوليائه ، تزيد على شكرهم ، وتَرْبُو على ثنائهم ، وأن تكون نِعَمُ اللهِ تعالى عليه فوق ما يُؤَمِّلون له ، ويَرْجونَ عنده .

وكلُّ ذلك فى عبارةٍ مُتخَيَّرة ، ونَسقٍ جميلٍ دَلَّ على بلاغةِ الكاتبِ ، وتمكُّنِه من صناعته .

(٣) ومن جوامع كَلِم النبى صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بالسلامَةِ دَاءً . » والمعنى أنَّ الرجلَ إذا طالت به الحياةُ ، وامتدَّ العمرُ ، كان طول حياته سبباً فى كِبَره ، وضَعفِ صحته ، وعجزِه عن القيام بأموره . ولقد يمتَدُّ به ذلك حتى يصيرَ عجزًا عن القيام والقعود ، وتناوُلِ الطعام والشراب ، والاستمتاع بما يقع تحت بصره من دواعى السرور والفرح . أفليس هذا داءً لا دواءَ له إلا أن يستريحَ الجسمُ الفانى من متاعب الحياةِ ، ويذهبَ إلى رَبِّه .

ولقد جمع الحديثُ الشريف هذه المعانِىَ فى ثلاثة ألفاظٍ ، فما نقَص منها شيئاً . وهذا مَا أراده بعض الحكماء بقوله : « البلاغة قَوْلٌ يسيرٌ ،

يشتمل على معنًى خطيرٍ . » وعبَّر عنه الآخر بقوله : « البلاغة عِلْمٌ كثيرٌ فى قولٍ يسيرٍ . »

وأوَّلُ مَن نطَقَ بهذا المعنى : النَّمِرُ بنُ تَوْلب ، أحدُ شعراءِ العصر الجاهِلِيِّ إذ يقولُ :

يَوَدُّ الفتى طُولَ السلامَةِ والغِنَى ... فكيفَ تَرَى طولَ السلامةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ الفتَى بعدَ اعتِدالٍ وصِحَّةٍ ... يَنوءُ إذا رام القِيامَ ويُحْمَلُ

وقال حميدُ بنُ ثَوْرٍ :

أَرَى بَصَرى قد رابنى بعدَ صِحَّةٍ ... وحَسبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتسلما

وقال آخرُ :

ودَعَوتُ رَبِّى بالسلامة جاهِداً ... لِيُصِحَّنِي فإذا السلامةُ داءُ

وقال ابنُ الرُّومِيِّ :

لَعَمْرُكَ ما الدُّنْيا بدارِ إقامةٍ ... إذا زالَ عن نفسِ البَصير غِطاؤُهَا
وكَيفَ بقاءُ العَيْشِ فيها وإنَّمَا ... يُنالُ بأسبابِ الفَناءِ بَقاؤُهَا

وقد جاء ابنُ الرومى بالمعنى غامضاً مبهَماً ، يحتاجُ إلى كدِّ الذِّهنِ ، وطولِ الفكرةِ ؛ فإنه يريد بقوله : « وإنما ينالُ بأسباب الفناءِ بَقاؤُها . » أنَّ الإنسان إنما ينالُ البقاءَ طويلاً فى الدنيا بامتدادِ عمره ، وهذا الامتدادُ هو سببُ الفَناء ؛ لِأَنَّ للعمر نهايةً ، وكلُّ يوم يمُرُّ منه يُقرِّب هذه

النهايةَ مهما تَكُنْ بعيدةً ؛ لأنه واحدٌ من أيام الحياة المعدودةِ ، يَنقُص عددَها ، ويُقرِّب آخرَها .

وقَريبٌ من هذا قَوْلُ محمدِ بنِ عليٍّ رَضِيَ الله عنهما :

« مالكَ من عَيْشِك إلا لَذَّةٌ تَزْدَلِفُ بك إلى حِمامِك ، وتُقَرِّبُك من يومِك . فتأمَّلْ أمرَك ، فكأنك قد صِرتَ الحبيبَ المفقودَ ، أو الخَيالَ المُخترَمَ . »

(٤) وقال المأمونُ لأمِّ الفضلِ بنِ سهلٍ بعد قَتلِهِ إيَّاهُ : « أتجزَعين ولكِ ولدٌ مِثْلي ؟ » . قالت : « وكيفَ لا أجْزَعُ على ولدٍ أفادني إياكَ ! » فانظر كيف أرادَ أن يُلزِمَها الحجةَ في تَرْكِ الجزَعِ بأنه منها بمنزلة الولد ، وفي مثله وهو أميرُ المؤمنين كِفايةٌ من الحاجة ، ورادعٌ عن الحُزنِ . ولكنها جاءت بما هو أبلغُ في الحجةِ ، وآثرُ عند المفاضَلةِ ، إذ قالت له : « إن بُنُوَّتَك لي لم تجئ إليَّ إلا من ناحيتِهِ ، فهذا الخيرُ الذي أجتَنِيهِ من بُنُوَّةِ أميرِ المؤمنين — خيرٌ وَرَّثَنيه مَن أبكيه ، وفَضلهُ ظاهرٌ فيه ، فهو يبكائي لذلك جَديرٌ . »

(٥) وقال المأمونُ ليحيى بنِ أكثمَ القاضي : « صف لي حالي عند الناس . » فقال : « يا أميرَ المؤمنين ؛ قد انقادَت لك الأمورُ بأزمَّتِها ، وملَّكتْك الأمةُ فُضولَ أعِنَّتِها ، بالرَّغبةِ إليكَ ، والمحبة لكَ ، والرِّفق منك ، والعِياذَةِ بك ، بعَدْلك فيهم ، ومَنِّكَ عليهم ، حتى لقد أنسيتَهم

، وآيَسْتَهم خلفَك ، فالحمدُ لله الذى جمَعنا بك بعد التَّقاطعِ ، ورفعَنا فى دَوْلَتك بعد التواضُعِ . » فقال : « يا يحيى ، أَتَحْبِيراً أم ارتجالاً ؟ » قال يحيى : « وهل يمتنعُ فيك وَصْفٌ ، ويتعذَّرُ على مادِحِك قولٌ ، أو يُفحَمُ فيك شاعرٌ ، أو يَتلَجْلَجُ خطيبٌ ؟ »

(٦) ودخل أعرابىٌّ على المنصور فتكلَّمَ ، فأُعجِب بكلامهِ ، فقال : « سَلْ حاجتَك . » فقال : « يُبقيكَ الله ، ويَزيدُ فى سلطانِك . » فقال : « سَلْ حاجتَك ، فليس فى كلِ وقتٍ تُؤمَرُ بذلك . » فقال : « ولِمَ يا أميرَ المؤمنين ؟ فوالله ما أَستَقْصِرُ عُمرَك ، ولا أخافُ بُخلَك ، ولا أغْتَنِمُ مالَك ، وإنَّ سؤالَك لشرَفٌ ، وإن عَطاءَك لزَيْنٌ ، وما بامرئٍ بَذَلَ وجهَه إليك نَقْصٌ ولا شَيْنٌ . »

فأنتَ ترى أن كلاًّ من يحيى والأعرابىِّ قال على البَديهةِ قولاً جميلا ، أَجادَ به وصفَ ممدوحِهِ ، فبلغ الغايةَ ، وأَحرزَ قصَبَ السَّبْقِ ، وجرى فى قوله جَريانَ السيل ، وانصَبَّ انصِباب القَطْرِ .

(٧) ومن جيد الشعرِ قولُ مَعْنِ بن أَوسٍ :

لعمرُك ما أَهْوَيتُ كَفِّى لِريبةٍ ... ولا حَملَتْنى نحوَ فاحشةٍ رِجْلى
ولا قادَنى سَمْعى ولا بصَرى لها ... ولا دَلّنى رَأْيى عليها ولا عَقْلى
وأَعلَمُ أنِّى لم تُصِبْنى مُصيبةٌ ... من الدهرِ إلَّا قد أَصابت فتًى قَبْلى

ولستُ بماشٍ ما حَييتُ لِمُنكَرٍ من الأمرِ لا يمشى إلى مثلِهِ مِثْلى
ولا مُؤثِر نفْسى على ذى قَرابةٍ وأُوثِرُ ضيفى ما أقامَ على أهْلِى

فقد وصف نفسَه فى شعره بصفاتٍ من الكمال ، سَرَدَها فى أسلوب عَذْبٍ سائغٍ ، لا يكدُّ ذِهْناً ، ولا يَسْتَوْجِب تفكيرًا ، فهو يقول : إنَّ يديه طاهرتان من الدَّنَس ، وإن قَدَمَيه لا تسيران به إلى ما يَثْلِمُ العِرْض ، ويَسْتَوْجِبُ الذمَّ ، وإنَّ سَمْعَهُ وبصرَه ورأيه وعقله لا تقودُه إلى مواطن الشُّبَهِ ، ولا تحمِلُه إلى أماكِنِ الرِّيَبِ . ويقول: إنه مِمَّن يُشاطرون ذوى القُرْبَى أموالَهم ، ويُؤْثِرونَ ضيوفَهم على أهلهم ، فبَسَطَ طهارتَه وكرَمه فى أبياته بَسْطًا سائغاً جميلًا.

(٨) ومما هو جَيِّدٌ فى رَصْفِه قَولُ العبَّاسِ بنِ الاحْنَفِ:

إليكَ أشكو رَبِّ ما حلَّ بى مِن صَدِّ هذا التَّائِهِ المُعْجب
إنْ قالَ لم يفعَلْ وإن سِيلَ لم يبذُلْ وإن عوتِبَ لم يُعْتِبِ
صبٌّ بِعِصيانى ولو قال لى لا تَشْرَبِ الباردَ لم أَشْرَب

فانظر كيف وصف صاحبَه بالإعراض ، وعَدَمِ الشفقةِ ، والمبالغةِ فى الهَجْرِ ، حتى كأنه مُغْرَمٌ بالمخالفةِ ، مع شِدَّةِ طاعة الشاعرِ لصاحبه ، وحِرصِه على إرضائه ولو كان فى ذلك ما يشُقُّ احتمالُه . فجاءت أبياتُه الثلاثةُ كما قال بعضُ الأدباء : « هذا واللهِ الشعْرُ الحَسَنُ المعنى ، السهلُ

اللفظِ ، العذب المستَمَع ، القليلُ النظيرِ ؛ العزيزُ الشَّبيهِ ، المُطْمِعُ الممتنع ، البعيدُ مع قربِه ، الصعبُ فى سهولته . »

(٩) ومن جيد الشعر قولُ البُحتُرىِّ يمدحُ جعفراً :

أيُّها الراغبُ الذى طَلَبَ الجو د فأَبْلَى كُومَ المَطَايَا وأَنضَى
رِدْ حِياضَ الإمام تَلْقَ نَوَالاً يَسَعُ الراغبين طولاً وعَرضَا
فهناكَ العطاءُ جَزْلاً لِمَن را مَ جَزيلَ العطاءِ والجودُ مَحْضَا
هو أَنْدَى من الغمام وأَوْحَى وَقَعاتٍ من الحُسام وأَمْضَى
يتوخَّى الإحسانَ قولاً وفِعلاً ويُطيعُ الإلهَ بسطاً وقَبْضَا

(١٠) وقوله من قصيدةٍ أخرى يمدحُه :

خَلَقَ اللهُ جعفراً قَيِّمَ الدُّنْـــيا سَداداً وقَيِّمَ الدينِ رُشْـــدَا
أكرمَ الناسِ شيمةً وأتمَّ النَّـــاسِ حِلماً ، وأكثرَ الخَلْقِ رِفْدَا
هو بحرُ السَّماحِ والجودِ فازدَدْ منه قُرباً ، تزدَدْ من الفقرِ بُعدَا
يا جَمالَ الدنيا عطاءً وبَذْلاً وجَمالَ الدنيـــا ثناءً ومَجدَا
إبقَ عُمرَ الزَّمانِ حتى نُؤَدِّى شُكرَ إحسانك الذى لا يُؤَدَّى

(١١) ومن الجيِّد الجَزْلِ المختارِ قولُ مسلِمِ بنِ الوليدِ فى مدح الفضلِ بنِ يحيى بنِ خالدٍ :

وَرَدْنَ رِواقَ الفَضلِ فَضْلِ بنِ خالدٍ فحَطَّ الثناءُ الجزلَ نائِلُه الجَزْلُ

بكفِّ أبي العباسِ يُستنزَلُ الغِنَى وتُستنزَلُ النُّعمَى ويُستَرعَفُ النَّصلُ
ويُستعطَفُ الأمرُ الأبِيُّ بحَزْمِه إذا الأمرُ لم يَعطِفْه نقضٌ ولا فَتْلُ

(١٢) وقال بعضُ الشعراءِ مادحًا :

له هِمَمٌ لا مُنتهَى لكبارِهَا وهِمَّتُه الصُّغْرَى أجلُّ من الدَّهرِ
له راحةٌ لو أنّ مِعشارَ جودِها على البَرِّ كان البَرُّ أندَى من البَحرِ

هذه صورةٌ من النثر الجيدِ، والشعرِ المختارِ، امتازت بالجَزالةِ حيناً، وبالسهولةِ آخر، واحْسِنَ فيها التعبيرُ عن المعانى أيَّما إحسانٍ .

تمرين

اقرأ الأمثلة الآتية ، وبين وجوه بلاغتها :

١ — من النـــثر

(١) قال تعالى :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ . وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . »

(٢) وقال تعالى :

« اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . »

(٣) وقال تعالى :

« وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . »

(٤) وقال صلى الله عليه وسلم فى سُؤْدُدِ الرجل بنفسه :

« مَنْ أَسْرَعَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُبْطِئْ بِهِ نَسَبُهُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ . »

(٥) وقال فى الحث على طلب العلم :

« لَا يَزَالُ الرَّجُلُ عَالِمًا مَا طَلَبَ الْعِلْمَ ، فَإِذَا ظَنَّ أَنَّه قَدْ عَلِمَ فَقَدْ جَهِلَ . »

(٦) وقال فى النهى عن الغيبة :

« إِذَا قُلْتَ فِي الرَّجُلِ مَا فِيهِ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِذَا قُلْتَ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ . »

(٧) وقال فى مداراة أهل الشر :

« شَرُّ النَّاسِ مَن اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّه . »

(٨) وقال : « الْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيه — لا خَيْرَ فى صُحْبَةِ مَنْ لا يَرَى لَكَ مَا يَرَى لِنَفْسِه — مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى — الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى — إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَعْمِلُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلونَ . »

(٩) ومن فصيح النثر قولُ الفَرَزدقِ للحُسينِ بنِ علىٍّ حينَ سأله عن أهلِ العراق :

« القلوبُ مَعك ، والسُّيوفُ عليك ، والنَّصْرُ فى السماء . »

(١٠) وقولُ شَبيبِ بن شَيْبَةَ يَصِفُ خالدَ بنَ صَفْوان :

« ليسَ له صديقٌ فى السرِّ ولا عَدُوٌّ فى العلانيةِ . »

(١١) وقول عمرو بن عُبَيْدٍ للمنصور حين طلب منه أن يعينه بأصحابه :

« ارْفَعْ عَلَمَ الحقِّ يَتْبَعْكَ أَهْلُه . »

(١٢) وقول أبى ذَرٍّ الغفارى لرجل قد شتمه :

« يا هذا لا تُغْرِقْ ، وَدَعْ للصلح موضعا ؛ فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثرَ من أن نطيع الله فيه . »

(١٣) وقال معاوية لعمرو بن سعيد :

« إلى من أَوْصَى بك أبوك ؟ » قال : « إن أبى أَوْصَى إلىَّ وَلَمْ

يُوص بى . » قال : « وبم أوصى إليك ؟ » قال : « ألا يَفْقِدَ إخوانُه منه إلا وَجْهَه . »

وتجد فيما أثر من نثر العرب كثيرًا مما تجرى فيه الفصاحة جريان الماء فى العود : من حكم مأثورة ، وخطب رائعة معجبة ، وفنون من الكلام فى أغراض مختلفة ، كلها حَسَنٌ مونِقُ اللفظ ، جَيِّدُ السَّبْكِ .

ب — من الشعر

ومن الشعر الرائع :

(١) قال عروة بن الورد فى الحث على الهجرة فى طلب الغنى :

دَعِينِي أَطَوِّفْ فى البلاد لَعَلَّنى ... أُفِيدُ غِنًى فيه لِذِى الحق مَحْمِل

أليس عظيماً أن تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وليس علينا فى الحقوق مُعَوَّلُ

فإن نحن لم نَمْلِكْ دفاعًا لحادث ... تُلِمُّ به الأيامُ فالموتُ أَجْمَلُ

(٢) وقال محمدُ بنُ بَشير فى الحث على الصبر ، والنظر فى عواقب الأمور .

إنَّ الأمورَ إذَا انْسَدَّتْ مَسالكُها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارْتُتِجَا

لا تيأسَنَّ وإن طالت مطالَبَةٌ ... إذا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا

قَدِّرْ لرِجْلِكَ قبل الخطْوِ موضِعَها ... فمن علا زَلَقًا عن غِرَّةٍ زَلِجَا

ولا يَغُرَّنْكَ صَفْوٌ أنت شاربُهُ ... فَرُبَّمَا كان بالتكدير مُمْتَزِجا

(٣) وقال المُقَنَّعُ الكِنْدِيّ يعاتب قومه ، ويصف وفاءه لهم :

وإن الذى بينى وبَيْنَ بنى أَبى ... وَبَيْنَ بنى عمى لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا
فإن أكلوا لَحْمِى وفَرْت لُحُومَهُمْ ... وإِنْ هُمْ هَوُوا غَيِّى هَوِيتُ لَهُمْ رُشْدَا
وإن زَجَرُوا طيرا بنحس تَمُرُّ بى ... زَجَرْتُ لهم طَيْرًا تَمُرُّ بهم سَعْدَا
ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القديمَ عَلَيْهِمُ ... وليس رئيس القوم من يحملُ الحقدا
لهم جُلُّ مالى إن تتابع لى غِنًى ... وإن قَلَّ مالى لم أُكَلِّفْهُمُ رِفْدا
وإِنى لَعَبْدُ الضيفِ ما دام نَازِلًا ... وما شيمةٌ لى غَيْرُها تُشْبِهُ العبدا

(٤) وقال رجل من فَزَارَةَ يَفْخَرُ بشرف خصاله وَجُودِهِ :

إِلَّا يكن عَظْمِى طويلًا فَإِنَّنى ... لَهُ بالخِصَالِ الصالحاتِ وَصُولُ
ولا خَيْرَ فى حُسْنِ الجُسُومِ وطُولِها ... إِذا لم تَزِنْ حُسْنَ الجسومِ عُقولُ
إِذا كنتُ فى القومِ الطِّوالِ عَلَوْتُهُمْ ... بعارفةٍ حتى يُقَالَ طويل
وكم قد رأينا من فروع كثيرة ... تموت إذا لم تُحْيِهِنَّ أصول
وَلَمْ أَرَ كالمعروفِ ؛ أَمَّا مَذَاقُهُ ... فَحُلْوٌ ، وأَمَّا وَجْهُهُ فجميل

(٥) وقال سعيد بن سَلْمٍ الباهلى : مدحنى أعرابى فأَبْلَغَ، فقال :

ألا قل لِسَارِى الليلِ لا تخشَ ضَلَّةً ... سَعِيدُ بْنُ سَلْمٍ نورُ كلِّ بلادِ
لنا سيدٌ أَرْبَى على كل سيد ... جَوَادٌ حَثا فى وجه كلِّ جوادِ

قال سعيد : فتأخرت عنه قليلا ، فهجانى ، فَأَبْلَغَ ، فقال :

لِكل أخى مَدْحٍ ثوابٌ عَلِمْتُهُ وليْسَ لِمَدْحِ الباهِلِىِّ ثَوابُ
مدحتُ سَعيداً والمديحُ مَهَزَّة فَكانَ كصَفْوَانٍ عليه تُرَاب

وفى هذا الشعر إشارة إلى قول الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا . »

(٦) وقال الشماخ يمدح عَرَابة بن أَوْسٍ الأنصارى :

رأيت عَرَابة الأَوْسِىَّ يسمو إلى العلياء مُنْقَطعَ القَرِينِ
إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لِمَجْد تَلَقَّاها عَـــرَابَةُ باليمينِ

(٧) وقال بشار بن بُرْدٍ فى العتاب :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تَلْقَ الذى لا تُعاتِبُه
فَعِشْ واحداً أَوْصِلْ أخاكَ فإنه مُقارِفُ ذنب مرَّةً ومُجانبُه
إذاأنت لم تَشْرَبْ مِراراً على القَذَى ظمئتَ، وأَىُّ الناس تصفو مشارِبُه

(٨) وقال إبراهيم الصُّولى يعاتب محمدَ بنَ عبد الملك الزَّيات وقد تَغَيَّرَ عَليه بعد ما صار وزيراً :

وكنتَ أخى بإخاء الزمان فلما نَبَا صِرْتَ حَرْباً عَوَانَا
وكنتُ أذمُّ إليكَ الزمان فأصبحتُ فيكَ أذم الزمانَا
وكنتُ أُعِـــدُّكَ للنائبات فأصبحتُ أَطْلُبُ منكَ الأمانَا

(٩) ومن الهجو قول جرير يهجو تَيْماً :

وَيُقْضَى الأمر حين تغيبُ تيم ولا يُسْتَأْذَنُونَ وهم شُهُود
وإنك لو رأيت عبيدَ تَيْم وتَيْماً قلتَ أيُّهم العبيدُ

(١٠) ومن أجود الرثاء قول الحُسَيْنِ بن مَطِيرٍ يرثى مَعْنَ بْنَ زائدةَ :

ألِمَّا على مَعْن وقُولاَ لِقَبْرِهِ سَقَتْكَ الغوادى مَرْبَعاً ثم مَرْبعاَ
فيا قبر معن أنتَ أوَّلُ حُفْرَةٍ من الأرضِ خُطَّتْ للسماحة مَضْجعاَ
ويا قبر معن كيف وارَيْتَ جُودَهُ وقد كانَ منه البرُّ والبحرُ مُتْرَعا
بلى قد وَسِعْتَ الجودَ والجودُ ميِّت ولو كان حَيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعاَ
فتًى عِيشَ فى معروفِهِ بَعْدَ موتهِ كما كان بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعا

(١١) وَلِقَطَرِيِّ بن الْفُجَاءَةِ فى الحماسة يخاطب نفسه :

أقول لها وقد طارت شَعَاعاً من الأبطال وَيْحَكِ لَنْ تُرَاعِى
فإنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ بقاءَ يوم على الأجل الذى لك لم تُطَاعِى
فصبراً فى مجال الموت صبراً فما نَيْلُ الخلودِ بمُستطاع
وما لِلْمرء خيرٌ فى حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقَط المتاع

الأســـلوب

الأسلوبُ هو طريقةُ اختيارِ الكلمات ونَظْمِها ؛ لتؤثِّرَ فى نفس القارئ أو السامعِ . فالحقائقُ المجرَّدة ؛ كالإحصائياتِ ، ونظريات الهندسةِ ، وقواعدِ النحو والصَّرفِ ، وقوانينِ الطبيعة والكيمياء — لا أسلوبَ لها — أعْنِى أنَّها لا تؤثِّرُ من ناحية لغتها ونَظْمِها .

وللأسلوب أثرٌ فى النفس غيرُ الأثر الذى يُحدِثُه المعنى ، فلو أنك عَرضتَ المعنى الجيِّدَ مُجرَّداً من أسلوب جيدٍ كان له أثَرٌ ، ولكنك لو عرضتَه فى أسلوب جيدٍ كان أثرُه أقْوَى .

ومن أجلِ هذا قد يَعْرِضُ شاعر أو كاتبٌ لِمَعنًى ، ويعرِضُ للمعنى نفسِه كُتَّابٌ أو شعراء آخرون ، فتختلف قيمةُ أقوالِهم تَبَعاً لاختلافِ أساليبِهم .

وَسَنُورِدُ لك بعضَ الأمثلةِ مما قِيلَ فى الجودِ :

(١) قال أعرابىٌّ :

« الدراهمُ مَياسِمُ تَسِمُ حَمْداً وذمًّا ، فمَن حبَسَها كان لها ، ومن أنْفَقَها كانت له . »

(٢) وأوصى قيسُ بنُ مَعدِ يكرِب بَنِيهِ فقال :

«يا بَنِيَّ ، عَليكُم بهذا المالِ فَاطلُبُوه أَجْمَلَ الطلب ، ثم أَخرِجوه فى أَجمَلِ مَذهَبٍ ؛ فَصِلوا به الأَرحامَ ، وَاصطَنِعوا الكِرامَ ، واعلَموا أن

المالَ يُسوِّدُ غيرَ السيدِ ، ويُقوِّى غيرَ الأَيِّد ، حتى يكونَ فى الناس نبيلًا ، وفى القلوب مَهيباً جليلًا .

فالأعرابى قد أجادَ وبلغَ الغايةَ فى قوله: «كان لها»، وقولِه: «كانت له.» فهذا إيجازٌ لا يَسهُلُ على كل بَليغٍ . وقَيْسٌ قد فَصَّل المعنَى ، وبيَّن وجوهَ الطلَبِ ، ووجوهَ الإنفاق ، واختَصَّ به الكِرامَ وذوى الأرحام ، فى حين أن الأعرابىَّ لم يختص بالبَذْلِ طائفةً دون أخرى ، فكان مع إيجازِه أوسَعَ مَعنًى ، وأرقى أسلوباً .

(٣) وقال حاتِمٌ الطائِىُّ :

أَمَاوِىَّ إنَّ المالَ غادٍ ورائِحٌ ... وَيَبْقَى من المالِ الأَحاديثُ والذِّكرُ

(٤) وقال بعض الشعراء :

ليس فى كلِّ ساعةٍ وأوانٍ ... تَهَيَّا صنائِعُ الإحسانِ
فإذا أَمكَنتْ فبادِرْ إليها ... حذَرًا من تعذُّر الإمكانِ
أَحزَمُ الناس مَن إذا أَحسنَ الدَّهْـ ... ـرُ تلقَّى الإحسانَ بالإحسانِ

فالمعنى كما ترى واحد ، ولكن الأسلوب مختلف ؛ فحاتِمٌ قد جرى فى بيته ومُخاطِبةِ زَوْجه مَجْرًى عَذْباً ليِّناً ، وأَحسَنَ كُلَّ الإحسانِ فى قوله : « ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ . » فالأحاديثُ فى الحياةِ ، والذكرُ الخلودُ بعدَها . أما الشاعرُ الآخرُ فأنتَ تراه قد كرَّرَ فى قوله : « ساعة

وأوان . » وضَعُفَ أسلوبه فى قوله : « حذَراً من تَعذُّرِ الإمكانِ . » فكان مع طولِه أقلَّ جودةً وعذوبةً من بيت حاتم .

ومُهِمَّة البلاغةِ أن تُعلِّمَنا إلى أىِّ مَدًى نستطيع أن نُؤثِّرَ فى النفوس بوساطة الأسلوبِ .

وللأسلوب غرضان :

(١) نَقْلُ المعانى أو الحقائقِ إلى ذِهن السامعِ أو القارىء

وللأسلوب أهميةٌ كبيرةٌ فى ذلك ؛ فإذا كانت المعانى جيدةً زادها الأسلوب الجيدُ جَوْدَةً وقوةً . وليس الأسلوب إلا ثَوْبَ المعنى ؛ فقد يكونُ الثَّوْبُ جيداً ، وقد يكون رديئاً ، ولا تنفعُ كثيراً جَوْدةُ الثياب إذا كان حَشْوُها رديئاً .

أُنظر إلى قولِ الشاعرِ :

بَلَوْنا ضَرائِبَ مَنْ قد نَرَىٰ ... فما أَنْ رأينا لفَتحٍ ضَريبا
هو المرءُ أبْدَت لهُ الحادِثا ... تُ عزماً وشيكاً ورأيا صَليبا
تَنَقَّلَ فى خُلُقٍ سُـــؤدُد ... سَماحاً مُرَجًّى وباساً مَهيبا
فكالسَّيفِ إن جئتَه صارِخاً ... وكالبحرِ إن جِئتَـــه مُستَثِيبا

فتَراه قد اختار الأسلوبَ الجيدَ للمعانى الجيدةِ ، فبلَغَ من ذلك الغايةَ .

(٢) نقلُ شعورِ الكاتبِ أو المُتَكلِّمِ إلى نفس القارىء أو السامعِ ، فكلُّ كاتبٍ أو شاعرٍ له شَخْصِيَّتُهُ ، وله شعورُه نحوَ الشىءِ

الذى يتحدَّث عنه ، وهو يصبُغ الشىء الذى يكتبُ فيه بشىءٍ من روحه ، ويُلَوِّنُه لَوناً من نَفسه ؛ ولذلك يختلِفُ أثَرُ الكُتَّابِ والشعراءِ فى نفوس السامعين ، ولو تناولوا مَعنًى واحداً — اُنظر إلى قول القائل :

فَقُلْتُ لهَا إن البكاءَ لَرَاحَةٌ بها يَشْتَفِى مَنْ ظنَّ أنْ لا تَلاقِيَا

وقولِ الآخر :

لعلَّ انحِدارَ الدمعِ يُعقِبُ راحةً من الوَجْدِ أو يَشْفِى نَجِىَّ البَلابِلِ

وَقَوْلِ الثالث :

نَثَرَت فريدَ مدامعٍ لم تُنْظَمِ والدَّمعُ يَحمِلُ بعضَ ثِقْلِ المُغرَمِ

وَقَوْلِ الرابع :

وإنَّ شِفائِى عَبْرَةٌ مُهراقَةٌ فهَلْ عند رَسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ

فترى الشعراء تَداوَلوا معنًى واحداً ، ولكن كان شعورُهم مختلفاً ، فصاغوه صِياغاتٍ مختلفةَ الأَثَر .

ومن أجل هذا وجب أن يحتفظَ كل أديبٍ بشخصيته ولا يُقلدَ غيرَه ، لأن الأسلوبَ هو إحساسُ النفس ، وإنما يَرْقَى بترقية إحساسِه هو ، لا بتقليد غيره — نعم إن الكاتبَ أو الشاعرَ يَستفيدُ كثيراً من أسلوب غيرِه ، ويَتعلَّمُ منه كيف يُنظِّمُ فكرَه ، وكيف يُجَوِّدُ أسلوبَه ، ولكن ينبغى أن يستفيدَ من هذه الأشياءِ فى قوة أسلوبه هو ، محافظاً على شَخصيتِه .

وتختلفُ أساليبُ الأدباءِ باختلاف البيئة ، واختلافِ العصور ؛ فأسلوبُ البَدويِّ غيرُ أسلوب الحضريِّ ، وأسلوب الكُتَّاب فى العصر الأمويِّ وصَدْر الإسلامِ يبعدُ عن أساليب الكتابِ فى العصر العباسِيِّ قليلًا أو كثيراً . وأساليبُ كتابِ العصر الواحدِ تختلفُ باختلاف البيئةِ التى يعيشون فيها ، بل لقد تختلف أساليبُ الكاتبِ الواحد باختلاف الموضوعات التى يكتبُ فيها ، فهو حين يعاتب يَرِقُّ ويعذُبُ ، وحين يفخَرُ يأتى بجزْلِ القولِ ، وفَخْمِ العبارةِ ، وحين يَصِفُ يميل إلى جودة الخيالِ ، وحُسنِ التشبيه ، وجَيِّدِ الاستعارةِ ، وهكذا نرى الكاتبَ يُلبِسُ معانِيَه ثياباً من الألفاظ مُختلِفةَ الألوانِ ، يجعل لكل معنًى ما يناسبُه من القول .

وكذلك الشاعرُ والخطيب والرِّوائىُّ ، لكل منهم صُوَرٌ من البيان تناسبُ ما تَناولَه من المعانى رِقَّةً وسهولة ، أو شِدَّةً وصلابةً ، وترى قولَه حِيناً مُرْسَلًا ، وآخرَ مسجوعًا ، وآنًا مُطوَّلًا ممدوداً ، وآخرَ موجزاً مقصوراً ، يَضَعُ كلا من ذلك مَوْضِعَه الملائمَ له ، ويَستعملُه حيثُ يطيبُ استعمالُه ، ويجمُل فى الأسماع وَقْعُه .

وقد اشتهر من الكتاب الأفذاذِ فى عصور زَهْوِ اللغةِ العربيةِ أربعةٌ كانت لهم أساليبُ فى الكتابة تُنسَبُ إليهم ، وهم :

(١) عبدُ الحميد بنُ يحيى الكاتب الأمَوىُّ ، وكان يلتزِم طريقة التَّرَسُّلِ ، وهو أولُ مَن وضع للكتابة حدوداً ونظُماً .

(٢) الجاحِظُ أبو عثمانَ عمرُو بنُ بَحْرٍ ، وكان سهلَ العبارةِ ، طويلَ الإطنابِ ، كثيرَ إيراد الجمل المترادفةِ ، دقيقَ الاستقصاء لوصف ما يريد وصفَه أو التحدثَ عنه ، كثيرَ الاستطرادِ ، يخرج من الشيء إلى ما يناسبه ، ثم يعودُ بعد قليلٍ أو كثير إلى ما بَدَأَ القول فيه .

(٣) ابنُ العميدِ : من كُتَّاب القَرْنِ الرابع الهجرىِّ ، وكان يلتزِم السجعَ القصيرَ الفِقَرِ غالباً ، ويُعْنَىَ بالإكثار من الأخيلة والتشبيهاتِ ، والاستعاراتِ ، ويُكثِر الاقتباسَ من القرآن الكريمِ ، والحديثِ الشريفِ ، والأمثالِ ، ويحُلُّ كثيرًا من أبياتِ الشعرِ ذاتِ المعانى الجميلة ، حتى سَمَّى الأدباء هذا الأسلوبَ بالشعر المنثورِ .

(٤) القاضى الفاضلُ : وقد جارى كتابَ المشرق فى التزام السجعِ ، وأنواعِ البديع ، وبخاصة التوريةُ ، وأكثرَ من حَلِّ المنظوم ، واقتباسِ الآيات ، وتضمينِ الأمثالِ ، واضْطَرَّتْه طريقتُه إلى إطالة السَّجَعَاتِ طُولًا أخرجها عن المألوفِ ، حتى جاءت معانى رسائلِه مُنقادةً لألفاظها ، وظهر فيها أَثَرُ التكلُّفِ والصَّنْعةِ ، ولكنَّ تَكَلُّفَه لم يُفسِد عليه جمالَ كتابته بقدر ما ظهر هذا الفسادُ فى طريقةِ مَنْ بعدَه مِمَّن نَسَجوا على منواله ، فقد ابتعدوا بأساليبهم عن البلاغة بُعْدًا كبيراً ، فصارت رسائلُهم كالثيابِ المُرَقَّعَةِ بألوان شَتَّى لا تأتلِفُ ولا تروق لناظرٍ .

مطابقة الأسلوبِ لمقتضَى الحالِ

يجبُ مراعاةُ ثلاث مطابَقاتٍ حتى يكونَ الأسلوبُ تامًّا وافيًا بالغرض :

(١) مطابقة الأسلوب للموضوع الذى يُتكلَّمُ فيه ، فالموضوعاتُ تختلفُ ضَعَةً ورقيًّا ، والأفكارُ تختلف سَذاجةً وتعقُّداً ، وسهولةً وصعوبةً . فيجب أن يكونَ الأسلوب مُسايرًا لهذه الموضوعاتِ والمعانى، فيكون سهلاً فى الموضوعات والمعانى السهلةِ ، جَزْلاً فيما يناسِبُ الجزالةَ من الموضوعاتِ والمعانى ، كما أنَّ بعضَ الموضوعاتِ يناسب الإطنابَ ، وبعضَها يناسب الإيجازَ ، وبعضَها يحتاجُ إلى أسلوبٍ خطابىٍّ ، وبعضَها إلى أسلوبٍ مَنْطِقِىٍّ ، وهكذا .

والوسيلةُ إلى ذلك تَرْبيَةُ الذوقِ الأدبىِّ عند الكاتبِ، حتى يُدْرِكَ أَوْفَقَ الأساليبِ للموضوع الذى يَتكلَّمُ فيه . وهذا الذَّوْقُ جزءٌ منه غَريزِىٌّ لا دخلَ للإنسان فيه ، وجزءٌ مُكْتسَبٌ يكتسِبُه الكاتب بمُخالطَتِهِ للأدباء المجيدين ، وبالمطالعةِ فى الكتبِ الأدبيةِ الراقيةِ ، وبالمرانةِ على الكتابة الجَيِّدةِ . فهو بهذا كُلِّهِ يستطيعُ أن يُدْرِكَ الألفاظَ والأساليبَ التى تناسب الموضوعاتِ ، ويَعلَمَ أيُّها يحتاجُ إلى قوَّةٍ ، وأيُّها لا يحتاجُ ، وأيُّها يحتاجُ إلى الفُكاهة ، وأيُّها لا يحتاج ، وأىُّ الكلامِ يناسب المقامَ ، وأيُّهُ لا يناسب . هذا الذَّوْقُ الراقى هو غايةُ ما يَصْبُو إليه الأديبُ .

يَرْوُونَ أنه لما فرغ الخليفةُ المُعتصِمُ من بناء قصرهِ ، جلس فيه وجمع الناسَ من أهله وأصحابهِ ، وجلس على سَريره المُرَصَّعِ بالجواهر ، وكُلَّما دخل رجل أُجلِسَ فى المكان اللائق به ، فما رأَى الناسُ أحسنَ من هذا اليومِ ، ثم أذِنَ للشعراء أن يقولوا ، فقال إسحقُ بن إبراهيمَ ، فكان أولُ بيتٍ فى قصيدته تَشْبيباً بالدِّيار القديمةِ ، والآثار الباليةِ ، على عادة شعراء العربِ فى الجاهلية ؛ فقال :

يا دارُ غَيَّرَكِ البِلَى فمَحاكِ يا لَيْتَ شِعْرِى ما الَّذِى أَبْلاكِ ؟

فتَطَيَّرَ الخليفةُ وتَطَيَّرَ الناسُ من قوله ، وانقَبَضَتْ صدورُهم ، وعمَّهم الأَسَفُ . وسَببُ هذا كلِّه قِلَّةُ ذوْقِ الشاعِر ، وعدمُ التوفيقِ فى الكلام والأسلوبِ الذى يناسب الموضوعَ .

(٢) مطابقة الأسلوب لِعَقْليَّةِ القارئين والسامعين ، فيجبُ ألا يكونَ الأسلوبُ عالياً جِدًّا يَصْعُبُ فَهْمُه ، بل يجب أن يكونَ فى مُتناوَل عقولِهم ، يستطيعون أن يدركوه فى سهولة ويُسْرٍ .

وخَيْرُ وسيلةٍ لمراعاة هذه المطابقةِ أن يكونَ الخطيبُ أو الكاتبُ على علم تامٍّ بعقليةِ الناسِ وطبائعِهم . والكتابُ أو الروايةُ الجيِّدةُ التى تصادف نجاحاً ، ويَسْتَحْسِنُها الجمهورُ — ليست هى الجيدةُ فى أفكارها وموضوعِها ولغتِها فَحَسْبُ ، بل هى التى دَرَسَ كاتبُها — فوق ذلك —

عَقْلِيَّةَ القارىء ، وكتب كتابَه أو روايتَه على النَّمَطِ الذى يفهمه ، وشَعرَ بالصعوبات التى قد يَجِدُها القارئُ فذَلَّلَها .

قال قائل لأبى تَمَّامٍ — وكان شعرُه غامضاً ، وخيالُه بعيدَ المَنالِ :

« لِمَ لا تقولُ ما يُفْهَمُ ؟ » فقال أبو تمام : « لِمَ لا تَفهمُ ما يُقالُ ؟ »

والحَقُّ مع القائلِ ، لا مع أبى تمامٍ ، فعلى الشاعر أولاً أن يُراعِىَ عقليةَ جُمهورِ السامعين لا الخاصة وَحدَهم .

(٣) مطابقة الأسلوبِ لنفس المتكلِّمِ أو الكاتبِ ، فكثيراً ما يتكلَّفُ فى كتابته ، ويُقَلِّدُ غيرَ شخصيتِهِ ، فيخرجُ كلامهُ سَمِجاً ثقيلَ الظِّلِّ ، فترى بعضَ الناسِ يتحدَّثُ فيَحْسُنُ حديثُه ، فإذا كتب سَمُجَت كتابتهُ ، لأنه فى الأولى طابقَ نفسَه ، وفى الثانية تابَعَ غيرَه ، فخرجَ الكلامُ مِن روحٍ غيرِ روحهِ فسمُجَ .

* * *

فتهذيبُ الذَّوْقِ الأدبىِّ حتى يُعرفَ به ما يناسب الموضوعَ وما لا يناسبُ ، ومعرفةُ طبائعِ الناسِ وعَقْلِيَّاتِهم ، وقُدرةُ الكاتبِ على تصويرِ مشاعرِه ، واستمدادُه كلامَه من روحه — هى كلُّ ما يلزَمُ الأديبَ ليجودَ أسلوبهُ .

صِفاتُ الأسلوب الجيّدِ

أهمُّ صفاتِ الأسلوبِ الجيدِ ثلاثةٌ : الوضوحُ ، والقوةُ ، والجَمالُ

ذلك أنَّ الغرضَ الذى يَرمِى إليه الكاتبُ لا يَعْدُو ثلاثةَ أشياءَ :

(١) نَقْلَ المعانى إلى ذِهن القارىء أو السامعِ .

(٢) التَّأثيرَ فى نفسه .

(٣) إثارةَ الشعورِ بالمُتْعةِ والسرورِ والإعجابِ .

وقد يكونُ هذه كلَّها جميعاً . وهذه الأغراضُ الثلاثةُ يقابلها فى الأسلوب الصفاتُ الثلاث التى ذكرنا ؛ فالوضوحُ عند إرادةِ الإفهامِ ، والقوةُ عند إرادةِ التأثيرِ ، والجمالُ عند ما نريد إمتاعَ القارىء وإدخالَ السرورِ عليه . والأفكارُ فى ذاتها قد تكون واضحةً وقويَّة وجميلةً ، ولكنَّ الأسلوب الجيدَ يساعدُ على الوضوحِ والقوةِ والجمالِ ، ويجعلُ إدراكَ هذه الأفكارِ فى مُتناوَلِ جَمْهَرَةِ الناسِ . فالمعنى الجيدُ قد يكونُ جيداً فى ذاته ، وقويًّا فى ذاتِه ، وجميلًا فى ذاته ، ولكِنْ إذا وُضِع فى أسلوبٍ غامضٍ ، أو ضعيف ، أو سَمِج — لم يَستَطِعْ إدراكَه إلا الفَيْلَسُوفُ ، فإذا وُضِعَ فى أسلوبٍ جيدٍ أدْرَكَه سَوادُ الناسِ ؛ كالذهبِ ، هو ذَهَبٌ فى ذاته ، ولكن إذا غُطِّىَ بطبقةٍ من القَصْدِيرِ لا يستطيعُ أن يدرِكَه على حقيقتِه إلا الكيميائىّ .

وَلْنَذْكُرْ كلمةً فى كلِّ صفةٍ من هذه الصفاتِ .

الوضـــوح : والوضوحُ فى نقلِ المعانى للقارئِ أو السامع هو أَهَمُّ أغراضِ الكاتب ، وهو الأساسُ الأولُ للصفاتِ الأخرى ، فالتأثيرُ فى عواطفِ القارئِ ، أو إشعارُه بالجمال يجب أن يَسبِقَهُ وضوحُ المعانى ؛ ومن ثَمَّ كان أهمُّ أغراضِ الكُتَّابِ القادرينَ أن تكونَ عِبارتُهم لا تحتمِلُ معْنيَين ، وليس فى معانيها مجالٌ للشكِّ إلا فى مواقفَ معدودةٍ .

ومما يُعينُ الكاتبَ على الوضوحِ :

(١) أن تكونَ ثروتُه اللغويةُ واسعةً حتى يستطيعَ أن يتخيَّر منها الألفاظَ التى تُناسب الموضوعَ ، وأن يتخيَّر منها ما هو أدَقُّ فى التعبير عنه ، وما هو أسهلُ وصولًا إلى الذهن ، وأن يتخيَّر الكلماتِ التى تحسنُ علاقةُ بعضها ببعضٍ .

(٢) عِلْمُه بقواعد اللغةِ ، وتركيبِ الجُملِ ، وطريقةِ رَبْطِ بعضِها ببعضٍ ، وطريقةِ عَرْضِها .

(٣) تَسَلْسُلُ الجُمل تسلسلًا منطِقيًّا منظَّماً ، فَتُوضَعُ المقدَّماتُ قبلَ النتائجِ ، والمعانى الأساسيَّةُ قبلَ المعانى الفَرْعِيَّةِ ، ثم لا يكونُ بين الأفكارِ فجواتٌ تضطرُّ القارئَ إلى العَناءِ فى تَخَطِّيها .

(٤) كثرةُ المرَانةِ على الدِّقةِ فى التفكيرِ ، والأمانةُ فى نقل أفكارِه بدِقَّة وجَلاءٍ .

والكُتَّابُ والشعراءُ يختلِفونَ فى توضيحِ المعانى على حسب وُضوحِها فى أذهانهم ، وقُدرتِهم على التعبيرِ عن معانيهم .

وقولٌ يُعَدُّ أبلغَ من قولٍ إذا كان أوضحَ فى المعنى ، وأجْلَى فى البَيان . فقول أبى تَمامٍ :

« وقُمْنا فَقُلْنا بعدَ أن أُفْرِدَ الثَّرَى به ما يُقالُ فى السَّحابةِ تُقْلِعُ »

— أقلُّ بلاغةً من قول مُسْلِمٍ :

« فاذْهَبْ كما ذَهَبت غَوادِى مُزْنَةٍ أَثْنَى عَلَيْها السَّهلُ والأَوْعارُ »

؛ لأن معنى الثانى أوضحُ وأَبيَنُ .

القـــوة : ليس الوضوحُ وَحدَه كافياً فى كلِّ الأحوالِ، فهو يَكْفِى عند ما يكون غرضُ الكاتبِ شرحَ فكرةٍ، أو نقلَ خَبَرٍ ، ولكن فى أكثرِ الأحيانِ يكون غرضُ الكاتبِ التأثيرَ فى عواطفِ السامعِ أو القارئِ ، وحَثَّه على العملِ فى طريقٍ خاصٍّ ، فيجب — إذْ ذَاك — أن يكونَ الأسلوبُ فوقَ وضوحِه مملُوءًا حَياةً ، وهذا ما نُعبِّرُ عنه بقوةِ الأسلوبِ .

ومما يساعدُ على الوصول إلى هذا الغرضِ :

(١) اختيارُ التعبيرِ الذى يُثيرُ فى النفس ذِكرَياتٍ ، أو يوحِى بخَيالات تَدْعَمُ المعنى وتثير الشعورَ ، أو يَبعثُ فى النفس أفكارًا

مناسبة للموضوع ، تأتى إلى الذهن من قَبيل تَدَاعى المعانى ، فلو أنكَ قلتَ : « إنَّ كلماتهِ رَأَبَت صَدْعَهم . » كانت أقْوَى من قولك : « أزالت ما بهم من خلافٍ . » ؛ لأنَّ التعبيرَ الأوَّلَ يُذَكِّرُكَ بصَدْعٍ فى شىء حِسِّىٍّ ، ثم التئامهِ ، وهذا يُكسِبُ المعنى قوّةً .

(٢) استعمالُ الكلماتِ القَويةِ فى المعانى القويةِ ، كقول البارودىِّ :

أَنَا المرءُ لا يُطغِيه عِزٌّ لثَرْوَةٍ ... أصابَ ولا يَلوِى بأخلاقهِ الكَدُّ
أَصُدُّ عن الموفورِ يُدْرِكُه الخَنَا ... وأَقْنَعُ بالميْسورِ يَعْقُبُه الحَمْدُ
ومَن كان ذا نَفْسٍ كنفسى تَصَدَّعَتْ ... لعِزَّتهِ الدنيا وذلَّتْ لهُ الأُسْدُ

فتراه فى شعره — وبخاصةٍ البيت الأخير — اختارَ من الكلمات أقواها ؛ كتصدَّعَت ، والعِزَّة ، ونحو ذلك .

(٣) القوةُ من ناحية نَظْمِ الكلامِ ؛ فتركيبُ الجُمَلِ وربطُ بعضِها ببعضٍ ، وتقديمُ ما حَقُّه التقديمُ ، وتأخيرُ ما حَقُّه التأخيرُ — سببٌ كبيرٌ من أسباب القوةِ ؛ كقوله :

وإنِّى امرؤٌ لولا العوائقُ أذْعَنَت ... لسُلطانهِ البَدْوُ المُغيرَةُ والحَضْرُ
مِن النفَرِ الغُرِّ الذين سُيوفُهم ... لها فى حواشى كُلِّ داجيةٍ فَجْرُ
إذا استَلَّ منهم سَيِّدٌ غَرْبَ سيفهِ ... تَفَزَّعتِ الأفلاكُ والتَفَتَ الدَّهْرُ

فترى فى هذه الأبياتِ من قوة الأسلوبِ ، ومَتانةِ التركيب ، ما يملؤه رَوْعَة .

(٤) التَّقابل أو التَّضادُّ بين الجمل ، فكثيرًا ما يكون تَضادُّ الأفكارِ سبباً من أسباب القوةِ ، كما ترى فى البيت الثانى من القطعة الأولى : أَصُدُّ ، وأَقْنَعُ ، والمَوْفور ، والمَيْسور ، ويُدْرِكُه الخَنَا ، ويَعْقُبُه الحَمْدُ .

(٥) وفى كثيرٍ من الأحيانِ تتطلَّبُ القوةُ أن يكونَ التأثيرُ سريعاً ، وإذْ ذاكَ يجب أن تكونَ الجملُ قصيرةً جيدةَ السَّبْكِ ، كما ترى فى أكثر السُّوَرِ فى جزء « عَمَّ » من القرآن الكريم ، وهذا هو السِّرُّ فى تأثيرِ الأمثالِ ، فهى فى كثير من الأحيان جُمَلٌ قصيرةٌ ، تُؤَثِّرُ أثراً سريعاً ، بل الكاتبُ اللَّبِقُ أحياناً يرى من الخير أن يُضَحِّىَ بالوضوح فى سبيل القوةِ ، فيأْتِىَ بالكلام موجَزًا قويًّا إذا دَعَتِ الحالُ .

(٦) وأخيراً — مِمّا يجعلُ الكتابةَ والخطابة قويةً قُوَّةُ عواطفِ الكاتبِ أو الخَطيبِ ، فقوةُ عقيدته وعواطفِهِ تُكسِب أسلوبَه قوة ، وتجعلُ إرادتَه واضحةً ، فما لم يُدْعَم الأسلوب بالاعتقاد الجازم كان فاتراً ، وما لم تُمِدَّهُ العواطفُ بالحياة وُلِدَ ميتاً .

جَمالُ الأسلوبِ : وهذه الصفةُ ثانَوِيَّةٌ بالنسبة للصِّفَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ ، أى أنَّ الكاتبَ يجب ألا يُوَجِّهَ إليها اهتمامَه إلا بعد أن يُوَفِّىَ الأسلوبَ حقَّه من وضوح وقوة ، ويجب ألا يُوَفِّيَها على حسابهما . وهذه الصفةُ يُقصَد بها إدخالُ المُتْعةِ والسرور على القارئِ . ومع هذا فلها مَنْزِلَة

ليست قليلة الخَطَرِ ، فقد يكون الأسلوبُ واضحاً قويًّا ، ولكن يشعُر القارىء أو السامع أنه غيرُ مَصقولٍ ، وأنه لا يُسيغهُ الذوقُ ، لأنه ينقُصُه مِسْحَةُ الجَمالِ .

وهناك صفاتٌ للجمال : بعضها سَلْبِيٌّ ، وهى الصفاتُ التى يجب أن يَخْلوَ الكلامُ منها ؛ ليكونَ جميلاً ؛ وبعضُها إيجابِيٌّ ، ونعْنِى بها الصفاتِ التى يجب أن تتوافرَ ؛ ليكونَ الأسلوبُ جميلاً . فالصفاتُ السلبيَّةُ :

(١) أن يَتجنبَ الكاتبُ الكلماتِ الثقيلةَ على السمع ، والثقيلةَ فى النُّطق ، والجملَ التى لم تكن مفرداتُها ثقيلةً ، إلا أنها بانضمام بعضِها إلى بعضٍ يثقُل وَقْعُها ، كالذى حُكِى أن جريراً قال قصيدةً فى مَدح أحدِ الأمَويين وفيها :

وتقولُ بَوْزَعُ قد دَبَبْتَ على العَصَا هَلاَّ هَزِئتِ بِغَيْرِنا يا بَوْزَعُ

فقال له أفسدتَ القصيدةَ بِبَوْزَع .

(٢) وأن يتجنبَ تكْرارَ الكلام على نَمَطٍ واحدٍ ، فإنَّ ذلك أدْعَى إلى المَلَلِ والسآمةِ ؛ كالنَّغمةِ يكثر تكرارُها فيثقُلُ وقعُها .

(٣) ويحدث أحياناً أن يُسْتَثْقَلَ الكلام لأسبابٍ غيرِ التى ذَكَرْنا ؛ كطولِ الكلماتِ ، وطولِ الجمل ، ونحوِ ذلك .

الصفاتُ الإيجابيَّةُ — تُعَدُّ الصفاتُ السلبيةُ كأنها تمهيدٌ للجمالِ ، أو كأنها تَنْحِيَةٌ للعوائق التى تعوقُ الأسلوبَ عن أن يكونَ جميلاً .

أما الصفات الإيجابية فيجمعُها صِفَةُ التناسُقِ والانسجامِ ، وهذه الصفةُ تتحققُ بأمورٍ منها :

(١) مطابقةُ الصوتِ للمعنى ، وأظهرُ ما يكون ذلك فى التعبيرِ عن العواطفِ ؛ فالعواطفُ المختلفةُ كالسرورِ والحزنِ ، والإعجابِ ، والفخرِ ، والحبِّ والكرهِ ، يناسبها تعبيراتٌ مختلفةٌ ، ونَبرَاتٌ للكلمات مختلفة . ويتَّصِلُ بهذا أوزانُ الشعرِ ؛ فَقِصَرُ التَّفْعِيلَةِ وطولُها لها اتِّصالٌ كبيرٌ بالمعنى والعاطفةِ .

(٢) ومنها هَنْدسةُ الأسلوبِ ، أَعْنِى مراعاةَ أن تكونَ أجزاءُ الكلام متناسبةً : كلُّ جزءٍ منه جميلٌ ، وكلُّ الأجزاءِ يناسب بعضُها بعضاً ، فالكلماتُ جيدةُ الوَقْعِ ، والجُمَلُ متناسقةٌ ، وهى كلُّها مناسبةٌ للموضوع .

أمثلةٌ للكلامِ الجيِّدِ الوَقعِ ، المتناسِقِ الجُملِ ، الذى تَناسَبَتْ كَلِماتُه ، وجُمِلَ فى الأسماع والقلوب مَوْقِعُه :

(١) قال صلى الله عليه وسلم فى بعض خُطَبِه :

« فَلْيَأْخُذِ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، ومِنْ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ ، ومِنَ الشَّبِيبَةِ قبلَ الكِبَرِ ، ومِنَ الحَياةِ قبلَ المَمَاتِ ، فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ المَوْتِ من مُسْتَعْتَبٍ ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ إِلَّا الجَنَّةُ أو النَّارُ . »

(٢) وقال الحُطَيْئَةُ فى الحثِّ على صُنع المَعروفِ :

مَن يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَم جوازِيَهُ ... لا يَذْهَبُ العُرفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ

(٣) وقال عبيدُ بنُ الأبْرصِ الأسَدِىُّ فى مدحِ الخيرِ وذمِّ الشرِّ :

الخيرُ يَبْقَى وإنْ طالَ الزَّمانُ بِهِ ... والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيتَ مِنْ زَادِ

(٤) وقال محمدُ بنُ أحمَدَ العَلوِىُّ يعاتب صديقاً :

لا تُؤَخِّرْ عَنِّىَ الجوابَ فيَوْمِى ... مِثْلُ دَهْرٍ وساعَتِى مِثلُ شَهرِ

(٥) وقال نصيبٌ يصِفُ اختلافَ قومٍ فى أَمرٍ عُرِض عليهم :

فقال فريقُ القَومِ لا ، وفريقُهم ... نَعَمْ ،وفريقٌ قال:وَيْحَكَ لا نَدْرِى

(٦) وقال طريح بنُ إسماعيلَ الثَّقَفِىُّ يصف قوماً :

إن يَسمَعوا الخيرَ يُخْفُوهُ وإنْ سَمِعوا ... شَرًّا أَذاعُوا وإنْ لَمْ يَسمَعوا كَذَبوا

(٧) وقال السَّمَوْءَلُ بنُ عادِيَاء يفخَر بقومِه :

وإنّا لَقَوْمٌ لا نَرَى القَتلَ سُبَّةً ... إذَا ما رَأَتْهُ عامرٌ وسَلولُ

يُقرِّب حُبُّ المَوتِ آجالَنا لَنَا ... وتَكْرهُه آجالُهم فتَطُولُ

(٨) وقال كُشاجِمُ فى ذَمِّ الخِضابِ :

يا خاضِبَ الشَّيْبِ والأيامُ تُظْهِرُه ... هَذَا شَبابٌ لَعَمْرُ اللهِ مَصنوعُ

(٩) وقال زُهَيْرٌ يمدحُ هَرِمَ بنَ سِنانٍ :

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلَّاته هَرِماً ... يَلْقَ السَّماحَةَ منه والنَّدَى خُلُقَا

لو نالَ حَيٌّ من الدنيا بِمَكْرُمَةٍ ... افقَ السماء لنالت كَفُّهُ الافقَا

فأنتَ ترى فى هذه الأمثلةِ أنَّ ألفاظَها تُناسبُ ما تناوَلَتْهُ من المعانى ، فما هو منها لنُصحٍ وإرشادٍ أو مَدحٍ جاءت جُمَلُه هادِئةً رقيقةً ، وما جاء منها لفَخْرٍ أو عِتابٍ عَلَتْ جمُلُه ، وَاشْتدَّت فيه نَبَراتُ الكلماتِ تبعاً لمعانيها . وهكذا تجدُ من أسباب بلاغةِ الأسلوبِ أن يُمَثِّلَ مَعْناه فى هدوئِه وشِدَّتِه ، وفى لِينِه وقوَّتِه ، فيكونَ كالثَّوبِ الجميلِ يزيد فى جمالِ لابسِه ملاحةً وحُسناً .

(٣) تحسينُ الكلام بأنواع من المحَسِّناتِ اللَّفْظِيَّةِ . ويجبُ أن يكونَ ذلك بقَدرٍ محدودٍ ، وفى المواضعِ اللائقةِ . وقد تَكَفَّل بهذا النوعِ علمُ البديعِ .

وكثيرًا ما يرجعُ جمالُ الأسلوبِ إلى جمالِ نفس الكاتبِ وجمالِ ذَوْقِه ، فإنْ كان كذلك شَعَّتْ نفسُه وذوقُه على أسلوبه ، فَكساهُ ذلك جمالًا .

تقسيمُ الأسلوبِ إلى خبرِيٍّ وإنشائيٍّ

الأسلوبُ إمَّا خَبَرٌ ، وإما إنشاءٌ ، فالخبَرُ : كلامٌ يحتمِلُ الصدقَ والكذبَ ؛ نحو قولك : هو كالأسدِ بأساً ، والبحرِ جوداً ، والسيفِ مضاءً . فقد تكونُ النِّسبةُ الكلاميَّةُ المفهومةُ من هذه الجملةِ مطابقةً لما فى الخارج ، فيكون الخبرُ صِدْقاً ، والمُخْبِرُ به صادقاً ، أو غيرَ مطابقةٍ له ، فيكون الخبرُ كذِباً ، والمُخبِرِ به كاذباً .

والإنشاء : هو الكلامُ الذى لا يحتملُ الصدقَ والكذبَ ؛ نحو : جِدَّ فى عملِك . ونحو : ما أَحسنَ الدِّينَ والدُّنْيَا إذا اجتَمعَا ! !

فأنتَ فى المثالِ الأولِ تطلبُ من المخاطَبِ الاجتهادَ ، وفى الثانى تتعجَّبُ من حُسنِ الدين والدنيا مجتمِعَيْن . وليس الطلبُ والتَّعَجُّبُ مما يحتملُ صدقاً ولا كذباً .

ولكلٍّ جملةٍ رُكنان : محكومٌ عليه أو مُخبَرٌ عنه ، ويسمى (مُسنَداً إليه) ، وذلك : كالفاعِلِ ونائبِه ، والمبتدأ الذى له خبرٌ ، واسمِ إنَّ وكان وأخواتِهما ، والمفعولِ الأولِ من ظَنَّ وأخواتِها . ومحكومٌ به أو مُخبَرٌ به ويسمى (مُسنَداً) ، وذلك : كالفعل ، وخبرِ المبتدأ ، وخبرِ كان وأخواتِها ، والمبتدإِ المُكْتَفِى بمرفوعه ، واسمِ الفعلِ . وما زاد على ذلك فهو قَيْدٌ فى

الجملة ؛ كأدواتِ الشرطِ ، والنفى ، والنواسخِ ، والمفعولاتِ ، والحالِ والتمييزِ ، والتوابعِ ، وضَميرِ الفَصْلِ .

فإذا قلتَ : جلسَ صادقٌ اليومَ أمامَ الحديقةِ على الكرسىِّ ، كان « جلسَ » هو المُسْنَدُ ، و « صادقٌ » هو المسنَدُ إليه ، وما بعد ذلك من ظَرْفَىِ الزمانِ والمكانِ والجار والمجرورِ قُيوداً للجملةِ . وقِسْ على ذلك

أساليبُ الخبرِ واستعمالُ كلٍّ منها فى الموضعِ الملائمِ له

تختلف صُوَرُ الخبرِ فى أساليبِ اللغةِ باختلاف أحوالِ المخاطَبِ ، فتراه حِيناً مجرَّداً من أدواتِ التوكيدِ ، وتجدُه حِيناً مؤكَّداً بمؤكِّدٍ واحدٍ ، وحِيناً مؤكَّداً بأكثرَ من مؤكدٍ ، فيُقالُ :

(١) الفَرَاغُ مَفْسَدةٌ (٢) إنَّ الفَراغَ مَفْسَدَةٌ (٣) إنَّ الفراغَ لَمَفْسدةٌ .

وهذه الأحوالُ الثلاثةُ تُسَمَّى أَضْرُبَ الخبرِ أى أنواعَه .

(١) فيتجَرَّدُ الخبرُ من التوكيدِ حينَ يكونُ المخاطَبُ خالِىَ الذهنِ من مَدلولِ الخبرِ ؛ نحو : الحَقُّ أَحَقُّ أن يُتَّبَعَ . المَالُ والبَنونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنْيَا . الحَياءُ زينَةُ الإنسانِ .

(٢) ويُؤَكَّد بمؤكد واحدٍ حين يكونُ المخاطَبُ شَاكًّا فى مَدلولِ الخبرِ ، طالباً التَّثَبُّتَ من صِدْقِه ؛ نحو : إن الصدقَ مُنجٍ .

(٣) ويؤكد بمؤكد أو أكثر. حين يكون المخاطب منكرًا؛ نحو: قوله تعالى: « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ . »

ويقع التوكيد بإِنَّ كما فى المثال السالف، وبأَنَّ؛ نحو قوله تعالى: « لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً . » وبلام الابتداء؛ نحو قوله تعالى: « وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . » وبأحرف التنبيه؛ نحو قوله تعالى: « هَأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ . » وبالقسم؛ مثل: تالله لا يذهب العُرف بين الله والناس. وبنُونِ التوكيد؛ نحو قوله تعالى: « لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ . » وقوله تعالى: « لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ . » وبالحروف الزائدة؛ نحو قوله تعالى: « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ . » وقوله تعالى: « مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . » وبالتَّكْرِير؛ كقوله تعالى: « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . » وبأَمَّا الشَّرْطِيَّةِ التَّفْصِيلِيَّةِ؛ كقوله تعالى: « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى . »

وكما يكون التوكيد فى الإِثبات يكون فى النفى، كما فى بعض الأمثلة السابقة؛ ونحو: مَا الْمُقْتَصِدُ بِمُفْتَقِرٍ، ونحو: والله مَا الْمُسْتَشِيرُ بِنَادِمٍ.

أغراض الخبر

الأصل فى الخبر أن يُلْقَى لغرضين :

(الأول) إفادة المخاطب الحكم الذى تضمنته الجملة ؛ نحو : كان عمر بن عبد العزيز أعدل خلفاء بنى أمية ، تقوله لمن لا يعرف ذلك . ويسمى هذا الغرض (فائدة الخبر) .

(الثانى) إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم ؛ كقولك لصاحبك : « أنت ألقيت قصيدة جيدة فى المذياع أمس » ، تدله على أنك عالم بهذا الأمر . ويسمى هذا الغرض (لازم الفائدة) .

الأغراض التى يخرج إليها الأسلوب الخبرى عن معناه

نَرَى فى الكلام العربى أَخْبَارًا كثيرةً لا يُقْصَدُ بها إفادةُ المخاطبِ الحكْم ، ولا أنَّ المتكلِّمَ عالم به ، فتكونُ قد خَرَجَتْ عن معناها الأصلى السَّالِف ذِكْرُهُ إلى أغْرَاضٍ أخرى . ومن أشهر هذه الأغراض :

١ — الاسْتِرْحَامُ : نحو رب إنى فقير إلى رحمتك ، فليس الغرض هنا إفادةَ الحُكْمِ ولا لازمَ الفائدة ؛ لأن الله تعالى عليم بهما ، ولكنَّهُ طَلَبُ رَحْمَةِ الله تعالى .

٢ — التَحَسُّرُ على شيء مَحْبُوبٍ ، كالتحسر على فَقْد الشَّباب فى قول الشاعر :

ذهَبَ الشَّبابُ فمَا لَهُ منْ عَوْدَةٍ وَأَتَى الْمَشيبُ فَأَيْنَ مِنْهُ الْمَهْرَبُ

أو على فقد عزيز ؛ كقول أعرابى يَرْثِى ابنه :

ولمَّا دَعَوْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ والأَسَى أجابَ الأَسَى طَوْعًا وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ
فإِن يَنْقَطِعْ منْكَ الرَّجاءُ فَإِنَّه سَيَبْقَى عَليكَ الْحُزْنُ ما بَقِيَ الدَّهْرُ

وكقول أعرابية ترثى زوجها :

كُنَّا كغُصْنَيْنِ فى جُرْثومَة بَسَقَا حِيناً عَلَى خَيْرِ ما تَنْمى به الشَّجَرُ
حتَّى إِذا قيلَ قَدْ طَالَتْ فُرُوعُهُما وطابَ قِنْوانُها واسْتمطرَ الثَّمَرُ
أَخْنَى عَلَى واحِدى رَيْبُ الزَّمانِ وَما يُبْقِى الزَّمانُ على شىء ولا يَذَرُ
كُنَّا كَأَنْجُمِ لَيْلٍ بَينها قَمَرٌ يَجْلُو الدُّجَى فَهَوَى من بَيْنِها الْقَمَرُ

٣ — الفخر ؛ كقول جَرِيرٍ يهجو الأَخْطَلَ التَّغْلَبى :

إِنَّ الذى حَرَمَ المَكارِمَ تَغْلِباً جَعَلَ النُّبُوَّةَ والْخِلَافَةَ فِينا
مُضَرٌ أَبِى وَأَبُو الْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ يا خُزْرَ تَغْلِبَ مِنْ أَبٍ كَأَبِينَا

٤ — الإرشاد والنصح ، وأكثر الأخبار الحِكْمِيَّةِ مما يكون لهذا الغرض ؛ كقول زهير :

وَمَنْ يكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

وقول النابغة الذُّبْيَانِي :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّه على شَعَثٍ أَىُّ الرجال المُهَذب

٥ — المدح ؛ ومن أمثلة ذلك قول النابغة يمدح النعمانَ بْنَ المُنْذِر :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ والْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وقد يجىء لأغراض أخرى . والمرجع فى معرفة ذلك إلى الذوق والعقل السليم .

تمرينـــات

(١)

عين الأساليب الخبرية والإنشائية فيما يأتى :

قال تعالى :

(١) « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْه من رَبِّه ، وَالْمُؤْمنُون كُلٌّ آمَنَ بالله ومَلاَئكته وكُتُبه وَرُسُلِهِ . »

(٢) « يَمْحَقُ اُللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَات ، وَاُللهُ لا يحبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أثيم . »

(٣) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولى لْأَمْرِ مِنْكُمْ . »

(٤) قال صلى الله عليه وسلم :

« اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوائجكُمْ بالكِتْمَان ؛ فَإِنَّ كُلَّ ذى نعمَة مَحْسُودٌ . »

(٥) ومن وصية عبد الملك بن مَرْوَانَ لأولاده :

يا بَنِيَّ ، كُفُّوا أَذاكُمْ ، وابذلُوا معروفَكُمْ ، واعْفُوا إذا قَدَرْتُمْ ، ولا تَبْخَلُوا إذا سُئِلْتُمْ ، ولا تُلْحِفُوا إذا سَأَلْتُمْ ، فإن من ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللهُ عَلَيْه ، ومن أَعْطَى أَخْلَفَ اللهُ له .

(٦) قال أبو العلاء المعرى :

لا تَحْلِفَنَّ على صدْق ولا كَذب ... فما يُفيدكَ إلا المَأْثَمَ الحَلِف

(٧) وقال :

لا تَفْرَحَنَّ بما بلغتَ من العلا ... وإذا سَبَقْتَ فمن قليل تُسْبَقُ

ولْيَحْذَرِ الدَّعوى اللبيبُ فإنها ... لِلْفَضْل مَهْلَكَةٌ وخَطْبٌ مُوبِق

(٨) وقال أبو العتاهية :

بكيتُ على الشباب بدَمْع عَيْنى ... فلم يُغْنِ البكاءُ ولا النَّحيبُ

أَلَا لَيْتَ الشبابَ يعودُ يوْماً ... فَأُخْبِرَهُ بما فَعَلَ الْمَشِيبُ

(٩) وقال :

يا صاحبَ الدنيا المحبَّ لها ... أنت الذى لا يَنْقَضى تَعَبُه

(١٠) وقال :

ما أحسنَ الدنيا وإقبالَها ... إذا أطاعَ اللهَ مَنْ نَالَهَا

من لم يؤاس الناسَ من فَضْلها ... عَرَّضَ للإدبار إقْبالَهَا

(١١) وقال الشاعر :

أراكَ تُؤَمِّلُ حُسْنَ الثنـاء ولم يرزقِ الله ذاكَ البخيلا
وكيف يسـودُ أخو فِطْنَةٍ يَمُنُّ كثيرًا ويُعْطِي قليلا

(١٢) وقال سَعيدُ بن حُمَيْد :

وأراك تَكْلَفُ بالعتاب وَوُدُّنا صَاف عليـه من الوفاء دليلُ
ولعـل أيام الحيـاةِ قصيرةٌ فعلام يكثر عتبنـــا ويطول

(٢)

بيّن أساليب الخبر وأدوات التوكيد فى الأمثلة الآتية :

(١) قال تعالى :

« يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . »

(٢) وقال تعالى :

« وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُـكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْض إِنَّه لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّـكُمْ تَنْطقُونَ . »

(٣) وقال صلى الله عليه وسلم :

« شَرُّ النَّاسِ الَّذين يُكْرَمُونَ اتِّقَاءَ أَلْسنَتهمْ . »

(٤) وقال على كرم الله وجهه :

« مَارَسْتُ كُلَّ شَىْء فَغَلَبْتُه ، ومارسنى الفقرُ فَغَلَبَنى ، إن سَتَرْتُهُ أهلَكنى ، وإن أذَعْتُهُ فَضَحَنى . »

(٥) وقال النبى عليه السلام يصف الأنصار :

« إنَّكُمْ لَتَقِلّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ ، وتَكْثُرُونَ عنْدَ الْفَزَعِ . »

(٦) وقال بشار بن برد :

خَلِيلَىَّ إن المالَ ليس بنافع ... إذا لم يَنَلْ منه أَخٌ وصديقُ

(٧) وقال أبو العتاهية :

إن البخيلَ وإن أفاد غنًى ... لَتُرَى عليه مَخَايلُ الفَقْرِ

ما فاتنى خير امرئ وَضَعَتْ ... عنى يداهُ مئونَةَ الشكرِ

(٨) وقال آخر :

وَللْحِلْمُ خيرٌ فاعْلَمَنْ مَغَبَّةً ... من الجهل إلا أن تُشَمَّسَ من ظُلِم

(٩) وقال حسان بن ثابت :

أُصونُ عِرْضِى بمالى لا أُدَنِّسُهُ ... لا بارك اللهُ بعد العِرْضِ فى المالِ

أحتالُ للمال إن أَوْدَى فأَكْسِبُهُ ... ولستُ للعِرض إن أَوْدَى بمحتالِ

(١٠) وقال الشاعر :

ولَمْ أَرَ كالمعروف أمَّا مَذاقُهُ فحلوٌ ، وأما وجههُ فجميـــلُ

(١١) وقال صرَّدُر :

تَذِلُّ الرجالُ لأطماعهـــا كذلِّ العبيـدِ لأربابهـــا

وأعْلَمُ أن ثياب العفا ف أجملُ زِيٍّ لمُجْتَابِهـــا[1]

(١٢) وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما يَدْرِى أمرؤٌ كيف يَتَّقى إذا هو لم يَجْعَلْ له اللهُ واقيا

(١٣) وقال سعيد بن حميد فى العتاب :

أَقْلِلْ عتابَكَ فالبقـاءُ قليـلُ والدهر يَعْدِل تارةً ويَميـــلُ

ولعل أحداثَ المنيـةِ والرَّدَى يوماً ستَصْدَعُ بيننـا وتَحُـولُ

فَلَئِنْ سَـبَقْتُ لتبكينَّ بحسرةٍ ولَيَكْثُرَنَّ عَلَىّ منكَ عَـوِيلُ

ولئن سَبَقْتَ - ولا سَبَقْتَ - ليمضيَنْ من لا يشاكلُهُ لَدَىَّ خليـلُ

ولَيَذْهَبَنَّ بهـاءُ كُلِّ مُروءةٍ ولَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهـا المأهـولُ

---

(١) لابسها

(٣)

عين الأغراض المستفادة من الخبر فى الأمثلة الآتية :

(١) قال تعالى :

« لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ؛ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »

(٢) وقال تعالى :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . »

(٣) قال صلى الله عليه وسلم :

« عَدْلُ سَاعَةٍ فِي حُكُومَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً . »

(٤) وقال :

« إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ اللهُ فِي حُكْمِهِ ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ الْجَوْرَ فِي عَدْلِهِ . »

(٥) ومن خطبة له عليه السلام بمكة حين دعا قومه إلى الإسلام :

إنَّ الرَّائدَ لاَ يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ ما كَذَبْتُكُمْ، ولو غَرَرْتُ الناسَ ما غررتكم، والله الذى لا إله إلا هو ؛ إنى رسول الله إليكم خَاصَّةً ، وإلى الناس كافَّةً .

(٦) قال الشريف الرضى :

جار الزمانُ فلا جـــوادٌ يُرْتَجَى ... لِلنَّائباتِ ولا صـديقٌ يُشْفِقُ

وإذا الحليمُ رَمَى بسرِّ صديقِهِ ... عَمْـــداً فَأَوْلَى بالوداد الأحمقُ

(٧) قال المعرى :

عرفتُ سجايا الدهر، أَمَّا شُرُورُهُ ... فَنَقْدٌ، وأما خـــيره فَوُعُودُ

(٨) وقال :

رأيت سكوتى مَتْجَراً فلزمْتُهُ ... إذا لم يُفِدْ ربحاً فلستُ بخاسِر

(٩) قال ابن حيُّوس مادحًا :

بنى صالح أَقَصَدْتُمُ من رَميتُمُ ... وأحييتم من أَمَّ معروفكم قصدا

وَذَلَّلْتُمُ صَعْبَ الزمانِ لأهلهِ ... فَذَلَّ وقد كان الجِماحُ له وَكْدَا

مَنَاقِبُ لو أن الليالى تَوَشَّحَتْ ... بأذيالها لابْيَضَّ منهن ما أسودا

(١٠) وقال أبو فِراس :

صَبَرْتُ على اللَّأْوَاءِ صَبْرَ ابْنِ حُرَّةٍ ... كثيرِ العِدَا فيها قَلِيلِ المُسَاعِدِ

مَنَعْتُ حِمَى قومى وَسُدْتُ عشيرتى ... وَقَلَّدْتُ أهلى غُرَّ هَذى القلائد

(١١) وقال يخاطب سيف الدولة :

وكم لك عندى من أيادٍ وَأَنْعُمٍ ... رَفَعْتَ بها قدرى وَأَكْثَرتَ حُسَّدِى

وإنك للمولى الذى بك أقتدِى ... وإنك للنجم الذى بك أهتدِى

(١٢) وقال :

ونحن أناسٌ لا تَوَسُّطَ بيننا ... لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القبرُ

تَهُونُ علينا فى المعالى نفوسُنَا ... ومن يَخْطُب الحسناءَ لم يُغْلِها المهرُ

(١٣) وقال ابن الرومى فى رجل اسمه عيسى :

يُقَتِّرُ عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالدِ

ولو يستطيعُ لِتَقْتيره ... تَنَفَّسَ من مَنْخِرٍ واحدِ

(١٤) وقال أبو العلاء :

بَلَوْتُ أمورَ الناس من عهد آدمٍ ... فلم أر إلا هالكا إثْرَ هالِك

إذا كان هذا التُّرْبُ يجمع بيننا ... فَأَهْلُ الرَّزايا مثلُ أهلِ المَالِك

(١٥) وقال أعرابى يرثى ولده :

بُنَيَّ لئن ضَنَّت جفونٌ بمائها ... لقد قُرِّحَتْ منى عليك جُفُون

دَفَنْتُ بكَفِّى بعض نفسى فأصبَحَتْ ... وللنفس منها دافِنٌ ودَفِينُ

(١٦) قال زهير فى قوم هَرِم بن سِنَان :

قومٌ أبوهم سِنانٌ حين تَنْسُبُهُمْ ... طابوا وطاب من الأولاد ما وَلَدُوا

لو كان يَقْعُد فوق الشمسِ من كَرَمٍ ... قومٌ بأَوَّلِهِمْ أو مجدِهم قَعَدُوا

(٤)

عين المسند والمسند إليه ، وبين الأساليب الخبرية والإنشائية ، وأذكر أغراض الخبر فيما يأتى :

(١) قال تعالى :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ، وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا . »

(٢) قال عليه السلام :

« مَنْ أُعْطِىَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِىَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّه . »

(٣) وقال :

« لَا يَزَالُ الرَّجُلُ عَالِمًا مَا طَلَبَ الْعِلْمَ ، فَإِذَا ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ فَقَدْ جَهِلَ . »

(٤) ومن خطبة لخالد بن عبد الله القَسْرِىّ :

« نافِسوا فى المكارم ، وسارعوا إلى المغانم ، واشترُوا الحمدَ بالجود ، واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمةٌ من الله عليكم ، فلا تَمَلُّوا النِّعَمَ فتحوّلوها نِقَماً . »

(٥) ومن رسالة لابن زَيْدون :

« قد يَغَصُّ بالماء شارِبُهُ ، ويَقْتُلُ الدواءُ المُسْتَشْفِىَ به ، ويؤتَى الحَذِرُ من مَأْمَنِه ، وتكونُ مَنِيَّةُ المتمنِّى فى أمنِيَّتِه . . . وعِلْمُكَ محيطٌ بأن المعروفَ ثمرةُ النعمة ، والشفاعةَ زكاةُ المرُوءة ، وفضل الجاه تَعُودُ به صدقة .

وإذا امرؤ أسْدَى إليك صنيعةً ... من جاهه فكأنها من مالِهِ . »

(٦) قال أبو العتاهية :

إذا ما مضى القَرْنُ الذى أنت منهُم ... وخُلِّفْتَ فى قَرْنٍ فأنت غريبُ

وإن امرأً قد سار خمسينَ حِجَّةً ... إلى مَنْهَلٍ مِنْ وِردِهِ لَقَرِيبُ

(٧) وقال أبو العلاء :

احذر سليلك فالنار التى خرجت ... من زَنْدِها إن أصابت عودَهُ احترقا

(٨) وقال الأخطل :

وإن امرأً لا يَنْثنِى عن غَوايةٍ ... إذا ما اشْتَهَتْها نفسُهُ لَجَهُولُ

(٩) وقال حسان بن ثابت :

وإن امرأً يُمْسى ويصبحُ سالمًا ... من الناس إلاَّ ما جَنَى لَسَعِيد

(١٠) وقال المتنبى :

تَلَذُّ له المروءةُ وهى تُؤْذى ومن يَعْشَقْ يَلَذَّ له الغرام

(١١) وقال الحسين بن مَطير :

أُحِبُّ مكارمَ الأخلاقِ جُهْدِى وأكرهُ أن أُعيبَ وأن أُعابا
وأُصفحُ عن سِباب الناس حلما وشرُّ الناسِ من يهوَى السِّبابا
ومن هاب الرجال تهيَّبوه ومن حَقَرَ الرجالَ فلن يُهابا

(١٢) قال رجل من طيئ :

ومن يفْتقر فى قومه يَحْمَدِ الغنى وإن كان فيهم واسطَ العَمِّ مُخْوِلا
ويُزْرِى بعقل المرء قِلَّةُ ماله وإن كان أَسْرَى من رجال وأَحْوَلا

(١٣) قال الشاعر :

إن الطبيبَ يموت بالداء الذى قد كان يَشْفِى مثلَه فيما مضى

(١٤) قال عُرْوَةُ بن الوَرْدِ :

ذرينى لِلْغِنَى أَسْعَى فإنى رأيتُ الناسَ شَرُّهُم الفقيرُ
يباعِدُهُ القريبُ وتَزْدريه حليلتُهُ ويَنْهَرُهُ الصغيرُ
وتَلْقَى ذا الغنى وله جلالٌ يكادُ فؤادُ صاحبه يطير
قليلٌ ذنبُهُ والذنبُ جَمٌّ ولكن لِلغِنَى رَبٌّ غفورُ

أساليبُ الإنشاء

تقسيمُه إلى طلبيٍّ ، وغيرِ طلبيٍّ

(١) مَرَّ عمرُ بنُ الخطابِ رضى اللهُ عنه بعَجوزٍ تبيعُ اللبنَ ، فقال لها : « يا عجوزُ ؛ اِتَّقِي اللهَ ، ولا تَغُشِّي المسلمين ، ولا تَشُوبِي لبنَك بالماء . » قالت : « نعم ، يا أميرَ المؤمنين . »

ثم مرَّ بها ثانيةً فقال : « يا عجوزُ ؛ ألم أعهَد إليكِ ألا تَشُوبِي لبنَك بالماء ؟ » فقالت : « واللهِ ما فعلتُ . » فتكلَّمَت فتاةٌ لها من داخلِ الخِباء ، فقالت : « سبحانَ اللهِ يا أُمَّاهُ ! أَغِشًّا وحِنْثًا جَمَعتِ على نفسك ؟ » فسمعها عمرُ فقال : « للهِ دَرُّكِ أيَّتُها الفتاةُ ! ما أصدَقَكِ ! » ثم قال لولده : « أيُّكم يتزوَّجُها ؟ فلعلَّ اللهَ أن يُخرِج منها نَسَمَةً طيِّبة . » فقال ابنُه عاصمٌ : « أنا أتزوَّجُها يا أميرَ المؤمنين . » فزوَّجَها منه ، فأَوْلَدَها أُمَّ عاصمٍ ، التى تزوَّجَها عبدُ العزيز بنُ مَرْوانَ ، فأولدها عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ .

(٢) وقال عمرُ بنُ أبى ربيعةَ :

ليتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْنا ما تَعِدْ ... وَشَفَتْ أنْفُسَنا مِمَّا نَجِد

الأساليبُ التى تحتَها خطٌّ فى القطعتَيْن السابقتَيْن إنشائيةٌ ؛ لأنها لا تحتملُ صِدقًا ولا كذبا . وإذا أَمْعَنتَ فى النظر وجدتَ منها

ما يُطْلَبُ به حدوثُ شيء لم يكن حادثاً عند النُّطقِ ، كأسلوبِ الأمر في : اتَّقِ اللهَ ، والنهي في : لا تَشُوبِي ، ولا تَغُشِّي ، والاستفهامِ في : أَغِشًّا ، وأيّكم ، والنداء في : يا عجوز ، ويا أُمّاه ، ويا أمير المؤمنين ، والتمني في : ليت هنداً أنجزتنا ما تعد .

ومنها ما لا يدُلُّ على حدوثِ شيء ، كالقسمِ في : والله ، والتعجبِ في : سبحان الله ، وما أصدقَك .

ويسمى القِسمُ الأولُ إنشاءً طلبيًّا ، ويسمى الثاني إنشاءً غيرَ طلبيٍّ .

فالإنشاء نوعان : طلبيٌّ ، وغيرُ طلبيٍّ :

(١) فالطلبي ما يَسْتَدْعِي مطلوباً غيرَ حاصلٍ وقتَ الطلبِ ، ويكون بالأمر ، والنهي ، والاستفهامِ ، والتمني ، والنداء .

(٢) وغيرُ الطلبي ما لا يستدعي مطلوباً ، وله عِدَّةُ أساليب ، منها ؛ التعجب ، والقسم .

تمرين

بيِّن أنواعَ الإنشاء فيما يأتي :

(١) قال تعالى :

« وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ

إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً . وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً . وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً . »

(٢) وقال تعالى :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . »

(٣) وَقال تعالى :

« يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ. »

(٤) قيل للعبَّاس بنِ عبدِ المطلبِ :

« أَنْتَ أَكبرُ أمْ رسولُ اللهِ ؟ » قال : « هو أكبرُ مِنِّي وأنَا أسَنُّ منه . »

(٥) قال بعضُ الحكماءِ لابنه :

« يَا بُنَيَّ ؛ تَعَلَّمْ حُسن الاستماعِ ، كما تَتعلَّمُ حُسنَ الحديثِ ، وَلْيَعْلم الناسُ أنكَ أحرصُ على أنْ تسمعَ منك على أن تقولَ ، فَلَأَنْ تقولَ ليتَنِي قلتُ — خيرٌ لك من أن تقولَ ليتَنِي لم أقُلْ . »

(٦) وقال زُهَيْرٌ :

نِعْمَ امرأً هَرِمٌ لم تَعْرُ نائبــةٌ إلَّا وكان لِمُرتاعٍ بها وَزَرَا

(٧) قال الشاعر :

ما أحسنَ الدِّينَ والدُّنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكُفْرَ والإفلاسَ بالرجلِ

(٨) قال سعيد بنُ حُمَيْدٍ في العتابِ :

أقْلِلْ عِتابكَ فالبقاءُ قليــلُ والدَّهرُ يَعــدِلُ تارةً ويَميلُ

ولعلَّ أيَّام الحياةِ قصيرةٌ فَعــلامَ يكثُرُ عَتْبُنا ويطُولُ

(٩) وقال بعضُ الأدباء :

ألَا ليتَ أيامًا مضَى لِي نعيمُها تَكُرُّ علينا بالوِصالِ فَنَنْعَمُ

أسلوب الأمرِ

(١) قال المهدِيُّ للربيع بنِ الجَهْمِ وهو والٍ على أرض فارسَ :

« يا ربيعُ؛ أُنشُرِ الحقَّ ، والزَمِ القَصْدَ ، وابسُطِ العدلَ ، وارفُقْ بالرعيةِ ، واعلَمْ أنَّ أعدلَ الناسِ مَنْ أنْصَفَ من نفسه ، وأجْوَرَهُمْ مَن ظلَمَ الناسَ لغيرِهِ . »

(٢) وقال تعالى :

« لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ . »

(٣) وقال معاويةُ لابنه يزيدَ :

« عَلَيْكَ بالْحِلم والاحتمالِ حتى تُمَكِّنَكَ الفُرصةُ ، فإذا أَمكَنَتْكَ فعليكَ بالصَّفحِ ، فإنه يدفعُ مُعضِلاتِ الأمورِ ، ويَقِيكَ مَصارِعَ المَحْذورِ . »

(٤) وقال تعالى :

« وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . »

إذا تأملتَ الأساليبَ التى تحتَ كلٍّ منها خط فى العباراتِ السابقةِ ، وجدتَ أن كل أسلوب منها يُطلَبُ به حصولُ شىءٍ لم يكن حاصلاً عند النُّطق به ، ثم إذا نظرت إلى طالب الشىء، والمطلوبِ منه، وجدتَ أنَّ الطالبَ أَعْلَى من المطلوب منه منزلةً ، وأرفعُ رُتبةً ، وأنه يُحتِّم على مَن طلب منه القيامَ بما يطلبُه .

وكلُّ أسلوبٍ من هذا النوعِ يسمى أسلوبَ أمرٍ حقيقىٍّ .

وإذا تأملتَ صِيَغَ هذا الأسلوبِ وجدتَها مختلفةً ؛ فتجدُها فعلَ أمرٍ فى المثال الأولِ ، ومضارعًا مقروناً بلام الأمرِ فى المثال الثانى ، واسمَ فعلِ أمرٍ فى المثال الثالث ، ومصدرًا نائباً عن فعله فى الرابع .

ومن هذا نَسْتَنْبِطُ ما يأتى :

أسلوبُ الأمرِ : هو ما يُطلبُ به حدوثُ شىءٍ لم يكن حاصلا وقت الطلبِ ، مع الاستِعلاءِ والإلزامِ .

وصِيَغُ هذا الأسلوبِ أربعةٌ :

(١) فِعلُ الأمرِ . (٢) والمضارعُ المقرونُ بلام الأمرِ .

(٣) واسمُ فعلِ الأمرِ . (٤) والمصدرُ النائبُ عن فعلِه .

تمرينـــات

(١)

اقرأ القطعةَ الآتية ، وعين أساليبَ الأمرِ فيها ، ونوعَ صِيَغِها :

قال ابن عبَّاسٍ رضى الله عنه : « عقِمت النساءُ أن تأتِيَ بِمثلِ عليِّ بنِ أبى طالبٍ رضى الله عنه . لَعَهْدِى به يومَ صِفِّين وعلى رأسه عمامةٌ بيضاءُ ، وهو يقِفُ على شِرْذِمَةٍ من الناس يحضُّهم على القتالِ ، حتى انتهى إِلَىَّ وأنا فى كَنَفٍ من الناس ، وفى أُغَيْلِمَةٍ من بنى عبدِ المطلب ، فقال :

« يا معشرَ المسلمين، تجَلبَبُوا السكينةَ ، وكَمِّلوا اللَّأمة ، وأَقلِقوا السيوفَ فى الأَغمادِ ، وكافِحوا بالظُّبا ، وَلْتَصِلُوا السيوفَ بالخُطَا ، فإنكم بعينِ اللهِ . »

« وَلْيُعاوِدْ كلٌّ منكم الكَرَّ ، ولْيَسْتَحْيِ من الفَرِّ ؛ فإن الفَرَّ عارٌ فى الأَعْقاب ، ونارٌ فى الحساب . وَطِيبُوا عن الحياة نَفْسًا ، وسيروا إلى الموت سُجُحًا ، ودونكم هذا الرِّواقَ الأَعظمَ . وعليكم بالصَّبرِ ؛ فإنَّ

الشيطانَ راكِبٌ صَعْدَتَه ، فصَمْدا صَمْدًا حتى يَبلُغَ الحقُّ أجلَه ، واللهُ معكم ، ولن يَتِرَكُم أعمالَكم . »

(٢)

مَثِّل بأربعة أمثلةٍ أدبيةٍ لأسلوب الأمرِ بصِيَغِه المختلفةِ .

الأغراضُ البلاغيةُ
التى يخرجُ إليها أسلوبُ الأمرِ

يخرج الأمرُ عن معناه الحقيقيِّ ، ويؤدِّى أغراضاً متنوعةً أهمها ما يأتى :

(١) الدعاء : إذا كان من أدنى إلى أعلى ؛ نحو :

« رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ » ، ونحو : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَ الْبَلَدَ آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . »

ونحو قول المتنبى يخاطبُ سيفَ الدولةِ :

أخا الجُودِ أعْطِ الناسَ ما أنتَ مالِكٌ ولا تعْطِيَنَّ الناسَ ما أنَا قائِلُ

وقول الآخر يخاطب يَزيدَ :

اِسْلَمْ يزيدُ فما فى الدينِ من أَوَدٍ إذا سَلِمْتَ وما فى المُلكِ من خَلَلِ

(٢) الإرشاد : إذا لم يكن فيه إلزامٌ ؛ كقوله صلى اللهُ عليه وسلم لعلىٍّ كرَّم الله وجهه : « إنْ أَردتَ أَن تسبق الصِّدِّيقين فَصِل من قطعَكَ ، وأعطِ مَن حَرمَك ، وَاعْفُ عمَّن ظلمَكَ . »

وقول أبى الطَّيبِ فى مدح سيفِ الدولة :

كذا فَلْيَسْرِ مَن طلب الأعادِى ومثلَ سُرَاكَ فَلْيَكُن الطِّلابُ

وقول أبى العَتاهيةِ :

واخفِض جَناحَك إن مُنِحْتَ إمارةً وارغَب بنفسك عن رَدَى اللَّذَّاتِ

وقول الأرجانى :

شاوِرْ سِواكَ إذا نابَتْك نائبةٌ يوماً وإن كنتَ من أهل المَشوراتِ

(٣) الالتماس، إذا كان من رفيقٍ لرفيقه ، أو من نِدٍّ لنِدِّه ؛ كقول الشاعر :

عَرِّج على الزَّهر يا نَدِيمِى ومِلْ إلى ظِلِّه الظليلِ
فالروضُ يلقاكَ بابتسامٍ والرِّيحُ تلقاكَ بالقَبولِ

وقول ابن زيدون :

دُومِى على العهدِ ما دُمْنَا محافظةً فالُحرُّ مَنْ دانَ إنصافاً كما دِينَا
أَوْلِى وفاءً وإن لم تبذُلى صِلَةً فالذِّكرُ يُقْنِعُنَا والطَّيفُ يكفِينَا

وقول ابن هانئ :

فَضَعى القِناعَ فقبلَ خَدِّكِ حُمِّرت رايَاتُ يحيى بالدَّمِ المَسفوكِ

(٤) التمنى : إذا كان الخطابُ لغير عاقلٍ ؛ كقول امرئ القيس :

أَلَا أَيُّها الليلُ الطويلُ أَلَا انجَلِ بصُبحٍ وما الإصْباحُ منك بأَمثلِ

وقول الشاب الظريف

ياقَطرُ عُمَّ دِمشقَ وَاخْصُصْ مَنْزِلًا ... فى قَاسِيونَ وحَلِّهِ بنَبَاتِ
وتَرَنَّمى يا وُرْقُ فيه ويا صَبَا ... مُرِّى عليه بأطيبِ النَّفَحاتِ

وقول ابن زيدون :

ياسارِيَ البرقِ غادِ القصرَ فَاسْقِ به ... مَن كان صِرْفَ الهَوَى والوُدَّ يَسْقينا
ويا نسيمَ الصبا بَلِّغ تَحيَّتَنَا ... مَن لو على البُعدِ حَيًّا كان يُحْيينَا

وقول أبى العلاء المعرى :

فيا موتُ زُرْ إنَّ الحياةَ ذميمةٌ ... ويا نفسُ جِدِّى إن دهرَكِ هازِلُ

(٥) التعجيز : كقوله تعالى :

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . »

وكقوله أيضاً :

« فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ . »

وكقول الشاعر :

أَرُونِى بَخيلاً طَالَ عُمرًا بِبُخْلِهِ ... وهاتُوا كَريمًا مات من كَثْرةِ البَذلِ

وكقول الآخر :

أَرِنى الذى عاشرتَه فوَجَدْتَه ... مُتَغاضياً لكَ عن أَقلِّ عِثارِ

وكقول الفرَزْدَقِ :

فَادْفَع بكفِّك إِن أَردت بِناءنَا ثَهلانَ ذا الهضَباتِ هل يَتحلْحَلُ

وكقول الآخر :

أَرِينى جواداً مات هُزْلاً لعلَّنِى أرى ما ترَيْن أو بخيلاً مُخلَّدَا

(٦) التهديد؛ كقوله تعالى: « قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصيرَكُم إِلَى النَّارِ. » وكقوله أيضاً : « اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ . »

وكقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا لم تَسْتَحِ فاصْنَع ما شِئتَ »

تمرينـــات

(١)

بين الأغراضَ التى تُستفادُ من أسلوب الأمرِ فيما يأتى :

(١) قال تعالى :

« الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُم الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . »

(٢) وقال تعالى :

« يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أَوِ انْقصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . »

(٣) وقال تعالى :

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . »

(٤) وقال ابن الرومى :

ذقتُ الطُّعومَ فما التذذتُ براحةٍ من صُحْبَةِ الأخيارِ والأشرارِ
أرِنى صديقًا لا يَنُوءُ بِسَقْطَةٍ من عيبهِ فى قَدْرِ صَدْرِ نَهارِ

(٥) وقال أبو الطيِّبِ يخاطب سيف الدولة :

أَجِزْنى إذا أنشدتُ شعرًا فإنما بشعرى أتاكَ المادحون مُرَدَّدَا
ودَعْ كلَّ صوتٍ غير صوتى فإننى أنا الصائحُ المَحكِىُّ والآخر الصَّدَى

(٦) وقال المَعَرِّى :

أبناتِ الهديلِ أسعِدْنَ أو عُدْ نَ قَبيلَ العَزاءِ بالإسعادِ

(٧) وقال ابنُ نباتةَ السعدِىُّ :

عَاوِلْ جَسيماتِ الأمورِ ولا تَقُلْ إن المحامدَ والعلا أرزاقُ
وارغَبْ بنفسِكَ أنْ تكونَ مُقَصِّرًا عن غايةٍ فيها الطِّلابُ سِباقُ

(٢)

(١) قال مالكُ بنُ الرَّيْبِ التَّمِيمِىُّ وقد حضره الموتُ :

فيا صاحِبَىْ رَحْلِى دنا الموتُ فانْزِلا ... برابيـةٍ إنى مُقيمٌ لَيالِيَا
أقيما علىَّ اليومَ أو بعضَ ليلةٍ ... ولا تُعجِلانى قد تَبيَّن ما بِيَا
وقُوما إذا ما استُلَّ روحى فهيِّئَا ... لِىَ السِّدرَ والأكفانَ ثم ابكِيا لِيا
وخُطَّا بأطرافِ الأَسنةِ مَضجَعِى ... ورُدَّا على عَيْنَىَّ فضلَ رِدائِيَا

(٢) وقال ابنُ النبيه المصرى من قصيدةٍ يمدح بها الملكَ الأشرفَ :

مَولاىَ، جُدْ، وانعَم، وصِل، واقتَدِر ... وافتِك فما تفرحُ أُمُّ الجبَان
واركَب جوادَ الدهرِ واسبِق إلى ... ما تشتهيه قد ملكتَ العِنان

(٣) قال البها زهـــير :

يا ليلُ ما لك آخِـرٌ ... يُرجَى ولا للشوقِ آخر
يا ليلُ طُلْ يا شَوقُ دُمْ ... إنى على الحالَيْنِ صابِر

(٤) وقال حفنى ناصف :

عِش فى القُرَى رأساً ولا ... تسكُن مع الأذنابِ مُدنَا
وارَبأْ بنفسِك أن تُرَى ... مُستمرِئاً فى العين جُبْنا
ودَع الجزيرةَ والمهَا ... والجِسْرَ والظبىَ الأغَنَّا
واسلُ الأغانِىَ والغوا ... نِى واسأل الرحمنَ عدنَا

أساليبُ الأمر فى القطعة الأولى للالتماسِ ، وفى الثانية للدعاء ، وفى الثالثة للتمنى ، وفى الرابعة للإرشادِ ؛ بيِّن السبب فى كلٍّ منها .

(٣)

أُطلب من جماعة ما يأتى فى أسلوب أدبىٍّ مُسْتَوْفياً صِيَغَ الأمرِ التى تعرفها :

التِزام الصدقِ . الوفاء بالعهد . البعد عن الدَّنايا . صِلة الرَّحِمِ . القيام بما يجبُ للوطنِ .

(٤)

حَوِّل الأساليبَ الخبريةَ الآتيـة إلى أساليبَ أمريةٍ متنوعةٍ ، وبين ما يُستفادُ من كل أسلوب أمرىٍّ :

يطولُ الليلُ . يغفرُ الله الذنوبَ . ساعَدَنى صديق

يلعب الخادمُ . تصبرُ النفسُ على المكارهِ

(٥)

بين أساليبَ الأمر التى فى القطعة الآتية ، واشرحها بعبارة موجَزةٍ :

قال بعضُ الملوكِ لولده وهو وَلِىُّ عهدِه :

« يا بُنَىَّ ؛ لِيكُن أبغَضُ رَعِيَّتِك إليكَ أشدَّهم كَشفاً لمعايب الناسِ عندك ؛ فإنَّ فى الناس معايبَ ، وأنت أحقُّ بسَتْرِها .

وإنما تحكُمُ فيما ظَهَرَ لك ، واللهُ يحكمُ فيما غابَ عنك . واكْرَه للناسِ ما تكرهُه لنفسِك ، واستُر العورةَ يَسْتُرُ اللهُ عليكَ ما تحِبُّ سَترَه ، ولا تَعْجَل إلى تصديقِ ساعٍ ؛ فإن الساعِيَ غاشٌّ وإنْ قال قولَ نُصحٍ . »

أسلوبُ النهي

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٍ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ . بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . »

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . »

الأساليبُ التى تحتَ كُل منها خطٌّ فى الآيتَيْنِ السابقَتَيْنِ أساليبُ إنشائيةٌ . وإذا تَدَبَّرْتَ كلَّ أسلوبٍ وجدتَ أنه يُطلَبُ به الكفُّ عن شىء على طريقِ الإلزامِ ، وأنّ الطالبَ هو المَوْلَى سبحانه وتعالى من عباده المؤمنين ، وهـذا هو النَّهْيُ الحقيقيُّ . وإذا تَأمَّلتَ صِيغَ كلِّ الأساليبِ وجدتَها واحدةً ، وهى المضارِعُ المقرونُ بلا النَّاهيةِ .

فأسلوبُ النهى : هو كلُّ أسلوبٍ يُطلَب به الكَفُّ عن شىء على طريق الاستِعلاء والإلزام . وله صيغةٌ واحدةٌ ، وهى المضارع المقرونُ بلا النَّاهية .

الأغراضُ التى يخرج إليها النهى

يخرجُ النهى عن مَعناه الحقيقِىِّ ، ويؤدِّى الأغراضَ التى أداها الأمرُ ، فيكون :

(١) للدعاء : نحو قوله تعالى :

« رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . »

وكقول مسلم بن الوليدِ فى الرشيدِ :

لَا يَعْدَمَنْكَ حِمَى الإسلامِ من مَلِكٍ أَقَمتَ قُلَّتَهُ من بعدِ تَأْوِيدِ

(٢) للالتماس : كقوله تعالى على لسانِ هارونَ يخاطب أخاه موسى :

« قَالَ يَا بْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي . »

وكقول أبى العلاء :

لا تَطْوِيَا السِّرَّ عنى يومَ نائبةٍ فَإن ذلك ذَنبٌ غير مُغْتَفَرِ

وكقول ابن زيدون :

لا تَحسِبوا نَأْيَكم عنَّا يُغَيِّرُنا ... إن طَالَمَا غَيَّرَ النأْىُ المُحِبِّينا

وكقول بعض الشعراء يخاطبُ صاحباً له :

لَا تَرْحَلَنَّ فما أَبْقَيْتَ لى جَلَداً ... مِمَّا أُطِيقُ به تَوديعَ مُرتَحِلِ

(٣) للإرشاد ؛ كقول خالدِ بنِ صَفْوان :

«لا تَطلُبوا الحاجاتِ فى غيرِ حِينِها ، ولا تَطلُبوهَا من غيرِ أهْلِها»

وكقول الطغرائىّ :

لا تطمحَنَّ إلى المراتبِ قبلَ أنْ ... تتكاملَ الأَدواتُ والأَسباب

وكقول أبى العَلاء المعرى :

لا تَحْلِفَنَّ على صِدقٍ ولا كَذبٍ ... فما يُفيدُك إلا المأْثَمَ الحَلِفُ

وكقول عمارة اليمنى :

فلا تُلزِمَنَّ الناسَ غيرَ طِباعِهم ... فَتتعبَ من طولِ العتابِ ويَتْعبُوا

ولا تَغْتَرِرْ منهم بحسن بَشاشةٍ ... فأَكثرُ إيماضِ البوارِق خُلبُ

(٤) للتمنى ؛ نحو : لا تَطلُع أيُّها الفجرُ ، لا تُمطِرى أيَّتُها السماء

ونحو قول أبى نُواس فى مدح الأمين :

يا نَاقُ لا تَسْأَمِى أو تبلُغِى مَلِكاً ... تَقبيلُ راحتِه والرُّكنِ سيَّانِ

ونحو قول الخنساء :

أعينَىَّ جُودَا ولا تَجْمُدَا ... ألاَ تَبْكِيانِ لِصَخرِ النَّدَى

وقول الشاعر :

يا ليلُ طُلْ يا نَوْمُ زُلْ يا صُبحُ قِفْ لا تَطْلُعِ

(٥) التوبيخ ؛ كقولك لمَن اعتَاد أن يطمَع فى مالِ غيره :

لا تطمَع فى مال غيرك ، ولا تأخُذ غَيرَ حقِّك . ونحو : لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتِىَ مِثلَه .

(٦) التهديد ؛ كقولك للخادم : لا تطِعْ أمرى ، ولا تُقلِعْ عن عِنادِك .

(٧) التحقير ؛ نحو : لا تَشْتَرِ العبدَ إلا والعَصَا معه .

ونحـــو :

لا تَعرِضَنَّ لجعفرٍ مُتَشَبِّهًا بِنَدَى يَدَيْهِ فلستَ من أندادِهِ

ونحـــو :

لا تَطلُبِ المجدَ إن المجدَ سُلَّمُهُ صَعبٌ وعِشْ مُستريحًا ناعِمَ البالِ

تمرينـــات

(١)

اقرأ القطعة الآتية ، وعين أساليبَ الأمرِ والنهىِ فيها ، والغرضَ المقصود من كل أسلوب ، ثم انثُرها مراعياً الغرضَ من الأمر والنهى :

قال الطغرائى :

رُوَيْدَكُم لا تسبِقُوا بِقَطيعَتى صُروفَ اللَّيالى إنَّ فى الدهرِ كافِيَا

ويا قلبُ عَاوِد ما أَلِفْتَ من الجَوَى مَعاذَ الهَوَى أن تُصبِحَ اليومَ سالِيَا

ويا كَبِدى ذُوبِى ويامُقلَتِى اسهَرِى ويا نَفسُ لا تُبْقِى من الوجد باقِيَا
فلا تطمَعُوا فى بُرْءِ ما بى فَإِنَّهُ هو الداءقد أعيا الطَّبيبَ المُدَاوِيَا

(٢)

مَثِّل للنَّهْىِ بأربعةِ أساليبَ مختلفةِ الأغراض ، مع بيان الغرضِ من كل أسلوب .

(٣)

لا تُعَرِّض نفسَك للهواء .

قد يكون الأسلوبُ السابق نَهياً حقيقيًّا ، وقد يكون الغرضُ منه الدعاء ، أو الالتماسَ ، أو التوبيخَ ، أو الإرشادَ ، فبين حالَ المخاطَبِ فى كل حالٍ .

(٤)

عين الأغراض التى استُعمِل فيها النهىُ فى الأساليب الآتية :

(١) « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . »

(٢) « وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كلَّ الْبَسْطِ . »

(٣) « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا . »

(٤) قال إسماعيل صبرى :

لاَ تَقْربوا النِّيلَ إن لم تَعْمَلُوا عَمَلا فماؤُه العَذْبُ لم يُخْلَق لِكَسْلانِ

(٥) وقال أبو تمام :

فلا يَبْعَدْ زمانٌ مِنكَ عشْنَا بنَضْرَتِه وَرَوْنقِه العُجَاب

(٦) وقال آخر :

يقولون قد حُمَّ التَّرحُّلُ فى غَدٍ فإن كانَ ذا حقًّا فلا تَأْتِ يا غَدُ

(٧) وقال عبدُ يغوثَ الحارثِيُّ :

أَلاَ لا تَلُومَانِى كَفَى اللومَ ما بِيَا فما لَكُما فى اللَّوْمِ حقٌّ ولا لِيَا

(٥)

قال إسماعيل صبرى يَرْثى طِفلاً صغيراً :

يا مالئَ العينِ نوراً ، والفؤادِ هَوًى والبيتِ أُنْسًا تَمَهَّل أيُّها القمرُ
لا تخْلِ أُفْقَكَ يَخْلُفْكَ الظلامُ به والْزَمْ مكانَكَ لا يَحْلُلْ به الكدَرُ

وقال طَرَفَةُ بنُ العبدِ :

فإنْ مِتُّ فَانْعِينِي بما أنا أَهلُه وشُقِّى علىَّ الجيبَ يابنةَ مَعبدِ
ولا تجعَلِينى كامرئٍ ليس هَمُّه كَهمِّى ولا يُغنِى غَنائى ومَشهَدِى

وقال آخر :

لا يخدعَنَّكَ من عَدوٍّ دَمْعُه وارحَمْ شبابَكَ من عدوٍّ ترحم

الأمرُ والنَّهْيُ فى قولِ إسماعيل صبرى للتمنى ، وفى قول طرفةَ للالتماسِ ، وفى قول الآخرِ للإرشاد . وَضِّح السببَ .

(٦)

(١) أنتَ تُحاولُ جَسيماتِ الأمور .

(٢) أنتَ تأمرُ بالصدق وتكذِبُ .

(٣) أنتَ كثيرُ عتابِ الأصدقاء .

(٤) أنتَ كثير التعرُّضِ لما لا يَعْنيك .

حوِّل الأساليبَ الخبريةَ السابقة إلى أساليب نَهْيٍ ، وبين الغرضَ من كل أسلوب .

(٧)

اشرح البيتيْنِ الآتيين ، وبين المرادَ من أسلوب الأمرِ والنهى فيهما :

اغتَفِر زَلَّتى لتحرزَ فضلَ الـــعَفوِ عنِّى ولا يفوتك أَجرِى
لا تَكِلْنى إلى التوسُّل بالعُـذْ ـرِ لعلِّى ألا أقومَ بعُـذرى

الاســـتفهام

هو طَلَبُ حصولِ صورةِ الشىء فى الذِّهن[1] ؛ نحو :

أتتحرَّكُ الأرضُ ؟ أينْمو الجمادُ ؟ أعلىٌّ حضر ؟ آلشمسُ طالِعةٌ ؟

ونحـــو :

أسعيدٌ حضر أَمْ محمودٌ ؟ أحضرَ سعيدٌ أم غابَ ؟ أخِطاباً تقرأُ أم درسًا ؟

والألفاظُ الموضوعةُ للاستفهام هى : الهمزة ، هل ، مَن ، ما ، أى ، كيف ، أين ، أنَّى ، متى ، أيَّانَ ، كَمْ .

الهمـزة ، وهـل

« الهمزة » تكونُ « للتَّصديقِ » ؛ نحو :

أيسيرُ الغمامُ ؟ أَيَصْدَأُ الذهبُ ؟ أمحمودٌ مُجِدٌّ ؟ أعلىٌّ شجاعٌ ؟

وتكون « للتصوُّرِ » ؛ نحو :

أ أبوكَ المسافرُ أم أخـوكَ ؟

أحاضرٌ محمـدٌ أم غائبٌ ؟

أخِطاباً تكتبُ أم درساً ؟

---

(١) إذا كانت الصورة المطلوبة وقوع نسبة فى الخارج بين أمرين أوعَدَمَ وقوعها ، فحصولها أو عدم حصولها هو التصديق ، وإلا فهو التصور .

أراكباً جئتَ أم ماشياً ؟
أيومَ الخميسِ تسافرُ أم يومَ الجُمعة ؟
أفى البيتِ تُؤَدِّى واجباتِك أم فى المدرسةِ ؟

والمستفهَم عنه فى التصور يَلِى الهمزةَ مباشرةً ، ويُذكَر له معادِلٌ بعدَ أم ، كما شاهدتَ فى الأمثلةِ السابقة ، وقد يُسْتَغْنَى عن ذكرِ المعادِلِ ؛ كقوله تعالى : « أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . »

ويُجابُ فيه بالتَّعيينِ فيُقال مثلاً :

أبى ، وحاضرٌ ، ودرساً ، وراكباً ، ويومَ الخميس ، وفى البيتِ .

و«هَلْ» تكونُ «للتصديق» فقط ؛ نحو : هل حافَظَ المِصريُّون على مَجدِ آبائِهم ؟ هل يَعقِلُ الحيوانُ ؟ هل يُحِسُّ النباتُ ؟

ويَمتَنِعُ معها ذِكرُ المعادلِ .

ويُجابُ فى التصديقِ بنعم ، أو ، لا وبَقِيَّةُ أدواتِ الاستفهامِ للتَّصَوُّر .

تمرينـــات

(١)

بين أدواتِ الاستفهامِ ، وعين المستفهَمَ عنه فى الأمثلة الآتية :

(١) قال الأصمَعِىُّ : «قلتُ لغلامٍ من أبناء العربِ : أيسُرُّك أن تكونَ لك مائةُ ألفِ درهمٍ وأنتَ أحمقُ» . قال : « لا واللهِ . » قُلْتُ : « لِمَ ؟ »

قال : « أخافُ أن يَجْنِيَ علىّ حُمقِي جنايةً تذهبُ بمالى ويبقَى حُمقِي . »

(٢) دخل أعرابىٌّ على مَعْنِ بنِ زائدةَ ، فلما مثَل بين يَدَيْهِ قال : « ممَّن الرجل ؟ » قال : « من العرب » قال : « فما حاجتُك ؟ . » قال : « نَأَى بَلَدِى ، وكَثُرَ وَلَدِى ، فجئتُ آمِلاً فى جودِك . » فقال له : « هل مِنْ قَرَابةٍ تَمُتُّ بها ، أو يدٍ تتوسَّلُ بمثلِها . » فقال الرجل : « أأتوسَّل إليكَ بغير فضلِك ، وأنتَ الذى أقول فيه :

أيا جودَ معنٍ ناجِ معناً بحاجَتِى ... فما لى إلى معنٍ سِواكَ شَفِيع »

فأَجْزلَ معنٌ صِلتَهُ .

(٣) قال المُتوَكِّلُ العباسِىُّ لأبى العَيْنـــاء : « مَن أَبخلُ مَن رأيتَ ؟ » قال : « موسى بنُ عبد الملك بنِ صالحٍ » قال : « فما رأيتَ من بخله ؟ » قال : « إنه يَحرِم القريبَ كما يحرِمُ البعيدَ ، ويعتَذِرُ من الإحسانِ كما يعتذر من الإساءةِ . »

(٤) قيل لبعضِ الحُكَماء : « كيف تَرَى الدهرَ ؟ . » قال : « يُخْلِقُ الأبدانَ ، ويُجدِّدُ الآمالَ ، ويُقرِّبُ الآجالَ . » قيل له : « فما حالُ أهلهِ ؟ » قال : « مَنْ ظَفِرَ به نَصِبَ ، ومَن فاتَه حَزِن . » قيل : « فأىُّ الأصحابِ أبرُّ ؟ . » قال : « العَمَلُ الصالح . » قيل : « فأيُّهم أضَرُّ ؟ » قال : « النفسُ والهَوَى . » قيل : « فَفِيمَ المخرَجُ ؟ » قال : « فى قَطْعِ الراحةِ ، وبَذْل المجهودِ . »

(٥) كان بعض الشعراء يَفِدُ إلى يزيدَ بنِ مَزْيَد كل سنة فينال رِفْدَه ، فقال له يزيد : « كم يَكفيكَ فى السنةِ ؟ » قال : « كذا وكذا . » قال : « أَقِم فى بيتك يأتِك ذلك ، ولا تَتْعَبَنَّ إلينا . » فلما مات يزيدُ رثاه الشاعر بقصيدة منها هذه الأبيات :

أحقٌّ أنه أَوْدى يزيدُ ... تَأَمَّل أيهـــا الناعِى المُشيدُ
أحامِى المَجدِ والإسلامِ أَوْدَى ... فما للأرض وَيْحَك لا تَميدُ
أبعدَ يزيدَ تَخْتَزِن البَوَاكِى ... دُموعاً أو تُصَانُ لها خدودُ
وهل تَسْقى البلادَ عِشَارُ مُزْنٍ ... بدِرَّتِهـا وهل يخضَرُّ عودُ
فَمَن يدعو الأنامَ لكل خَطْبٍ ... ينوبُ وكلِّ مُعْضِـلَةٍ تئودُ
فإن يَهلِكْ يزيدُ فكلُّ حَيٍّ ... فريسٌ للمَنِيَّـة أو طَرِيدُ
ألم تَعْجَب له أنَّ المنايَا ... فتَـكْنَ به وهُنَّ له جُنودُ
لقد عزَّى ربيعةَ أن يوماً ... عليهـا مِثْلَ يومك لا يَعودُ

(٢)

مَثِّل بأربعةِ أمثلةٍ لهمزة الاستفهامِ : اثنين للتصديق ، واثنين للتصور ، وأَجِبْ عن واحدٍ من كلٍ من النَّوْعَيْن .

(٣)

(١) استفهم من صديق لكَ عن بيع والده قُطنَه .

(٢) أُخبِرتَ بسفر أحدِ أصدقائك غداً . ضع سؤالاً تستفهِم به عن القطارِ الذى سيسافرُ فيه .

(٣) سل صديقاً لك عن ميله إلى الرحلات .

(٤) شككتَ فى أن المسافرَ أخو صاحبِك أو أبوه ، فضَع سؤالاً تطلبُ به تعيينَ المسافرِ منهما .

(٥) كوِّن ثلاثَ جملٍ استفهامية ، أداةُ الاستفهامِ فى كل منها « هل » ، وأَجِبْ عن واحد منها .

(٤)

قرأ سعيدٌ الرسالةَ يومَ الخميس فى السيارةِ مُتأثِّرًا .

كوِّن ستَّ جمل استفهامية تامةً عن مفرداتِ الجملةِ السابقة ؛

(١) عن المُسنَد . (٢) عن المسندِ إليه .

(٣) عن المفعول به . (٤) عن الزمن .

(٥) عن الجار والمجرور . (٦) عن الحال .

وأْتِ بمعادلِ المستفهَم عنه فى كل جملة .

(٥)

اشرح البيتين الآتيين ، وبين أساليب الاستفهام فيهما :

قال أحدُ الأعراب يمدحُ الفضلَ بنَ يحيى البرمكى :

ولائمةٍ لامَتْكَ يا فَضْلُ فى النَّدَى ... فقلتُ لها هل أَثَّرَ اللومُ فى البحرِ ؟

أتنهَيْنَ فضلاً عن عطاياه للوَرَى ؟ ... ومَن ذا الذى يسعى الغمامَ عن القَطْرِ ؟

(٦)

حُكِىَ أنَّ كِسرى أبرويز نزل متنكِّرًا بامرأةٍ فقال لها : « هل عندكِ لبن ؟ » فتقدَّمَتْ إلى بَقَرة لها فَحَلَبَتْها ، فرأى لبَنًا كثيراً ، فسألها : « أتأخُذِينَ منها ذلك القَدْرَ كلَّ يوم ؟ » قالت : « نعم . » فقال : « كم يلزَمُكِ فى السنةِ على هذه البقرةِ للسلطان ؟ » قالت : « دِرهمٌ واحد . » فقال : « أين ترتَعُ ؟ وبِكم منها يُنْتَفَعُ ؟ » قالت : « تَرتَعُ فى أرضِ السلطانِ ، ولى منها قوتى وقوتُ عِيالى . » فقال فى نفسِه : « إن الواجبَ أن أجعلَ إتاوةً على البقورِ ، فلأصحابها نَفْعٌ عظيم . » فما لبثَ أن قالت المرأةُ : « أوه ، إن سلطاننا هَمَّ بجَوْرٍ . » فقال أبرويز : « لِمَه ؟ » فقالت : « لأن دَرَّ البقرةِ انقَطَعَ ، وأن جَوْرَ السلطانِ مقتضٍ لجَدْبِ الزمان . » فأقلعَ عما كان هَمَّ به .

بين أساليبَ الاستفهامِ فى القطعة السابقة ، ووضِّح ما يُطلَب به التصوُّر ، وما يطلبُ به التصديقُ .

الأَغراضُ التى يخرج إليها أسلوب الاستفهامِ

يخرج الاستفهامُ عن معناه الأصلىِّ فيؤدى الأغراضَ الآتيةَ :

(١) النَّفْى ؛ كقوله تعالى :

« هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ . »

وقول أبى تمام :

هل اجتَمَعَت أحياءُ عَدْنانَ كُلُّها ... بُلتَحَمٍ إلا وأنتَ أميرُها

وقول البحترى :

هل الدَّهرُ إلا غَمرةٌ وانجِلاؤُها ... وَشيكًا وإلا ضِيقَةٌ وانفِراجُها

وقول الآخر :

هل الدهرُ إلا ساعةٌ ثم تَنْقَضِى ... بما كانَ فيها من بلاءٍ ومن خَفْضِ

(٢) الإنكار ؛ نحو : أتُسِىءُ إلى مَنْ أحسنَ إليك .

ونحو : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »

ونحو : « أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ »

ونحو قول البحترى :

أَأَكفُرُكَ النَّعماءَ عندى وقد نَمَت ... عَلَىَّ نُمُوَّ الفجرِ والفجرُ ساطِعُ

وأنتَ الذى أعززتَنِى بعدَ ذِلَّتى ... فلا القولُ مخفوضٌ ولا الطَّرْفُ خاشِعُ

ونحو قول المتنبى :

أَتَلتَمِسُ الأَعداءَ بعدَ الذى رَأَت ... قِيامَ دليلٍ أَوْ وُضوحَ بيانِ

(٣) التقرير ؛ نحو قوله تعالى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً . »

وقوله أيضاً : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . »

ونحو قول ابن الرومى :

أَلستَ المرءَ يَجبِي كلَّ حَمْدٍ إذا ما لم يَكُنْ للحمدِ جَابِ

وقول البحترى :

أَلستَ أعمَّهم جوداً وأَزْكَا هُمُ عوداً وأَمْضَاهُمْ حُساما

وقول جرير :

أَلَستُم خيرَ مَن رَكبَ المطايَا وأَنْدَى العالَمين بُطونَ راحِ

(٤) التَّعظيم ؛ نحوقوله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ . »

ونحو قول الشاعر :

أضاعونى وأَىَّ فَتًى أضَاعُوا لِيَومِ كَرِيهَةٍ وسَدادِ ثَغرِ

وقول الآخر :

مَن مِنْكُمُ المَلِكُ المُطاعُ كأَنَّهُ تحتَ السَّوابغِ تُبَّعٌ فى حِمْيرِ

وقول أبى الطيب :

أيدْرِى الرَّبْعُ أىَّ دمٍ أراقَا وأىَّ قلوبِ هذا الركبِ شَاقَا

وقوله أيضاً :

مَنْ للمَحافِلِ والجَحافلِ والسُّرَى فقدت بفَقْدِكَ نَيِّرًا لا يَطلُعُ

(٥) التحقير ؛ نحو :

فَدَعِ الوعيدَ فما وَعيدُك ضائِرِى أُطَنينُ أجنحةِ الذُّبابِ يَضِيرِ

ونحـو :

مِن أيَّةِ الطُّرُقِ يأتى مِثلَكَ الكَرَمُ أين المَحاجِمُ يا كافورُ والجَلَمُ

ونحـو :

فما أنتمُ إنَّا نَسينا مَنَ انتُمُ وريحُكُمُ من أىِّ رِيحِ الأعاصرِ

ونحـو :

مَنْ علَّم الاسْودَ الزَّنْجىَّ مكرُمَةً أقومُه البيضُ أم آباؤُه الصِّيدُ

أم أُذْنُه فى يد النَّخَّاسِ دَامِيةً أم قَدرُه وَهْو بالفَلْسَيْنِ مَردودُ

(٦) التوبيخ والتقريع ؛ نحو :

إلامَ الخُلْفُ بينكُمُ إلَامَا وهَذِى الضَّجَّة الكُبْرَى عَلامَا

ونحـو :

حتَّى مَتَى أنتَ فى لهوٍ وفى لَعِبٍ والموتُ نحوَكَ يَهوى فاتِحًا فاهُ

ونحـو :

أتعُدُّ مأثُرَةً لغيرك تَفْخَرها وسناؤُها فى سالِفِ الأَزمانِ

ونحو قول الحَجَّاج :

« يا أهل العراقِ ! هل شغَب شاغبٌ، أو نَعَب ناعِبٌ، أو زَفَر زافرٌ، إلا كُنتم أتباعَه وأنصارَه ؟

يا أهلَ العراقِ ! أَلَمَ تَنهَكُم المواعِظ ؟ أَلَمَ تَزْجُرْكم الوقائِعُ ؟ . »

(٧) التعجُّب ؛ كقول كُثَيِّر عزة :

فياعجباً للقلبِ كيف اعترافُه ... وللنفسِ لمَّا وُطِّنَتْ كيف ذَلَّتِ

وقول أبى تمام :

ما للخُطوبِ طَغَت عليَّ كأنَّها ... جَهِلت بأنَّ نَداكَ بالمِرصادِ

وقول أبى الطيبِ وقد أصابته الحُمَّى :

أَبِنْتَ الدهرِ عندى كلُّ بنت ... فكيف وَصَلتِ أنتِ من الزِّحام

وقول إحدى النساء تشكُو ابناً لها :

أَنْشَا يُمزِّقُ اثوابى يُؤَدِّبنى ... أبعدَ شيْبِيَ يَبْغِى عِندِىَ الأَدَبَا

وقول الآخر :

ما أنتِ يا دُنيا ! أرُؤيا نائِمٍ ... أم ليلُ عُرسٍ أم بِساط سُلافِ ؟

(٨) التمنى ؛ نحو :

« فَهَلْ إِلَى مَرَدّ مِنْ سَبِيلٍ . »

ونحو : « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا . »

ونحو قول أبى العتاهية فى مدح الأمين :

تَذَكَّر أمينَ اللهِ حَقِّى وحُرمَتِى ... وما كُنتَ تُوليني لعلك تَذْكرُ

فَمَن لِيَ بالعَيْنِ التى كنتَ مَرَّةً ... إلىَّ بها فى سالِف الدهر تنظرُ

ونحو :

هَلْ بالطُّلولِ لسائِلٍ رَدُّ ... أم هل لها بِتَكَلُّمٍ عَهْدُ ؟

(٩) التحسر ؛ كقول البارودىّ فى رثاء زَوْجه :

يا دَهرُ فِيمَ فجَعتَنى بحليلةٍ كانت خُلاصةَ عُدَّتى وعَتادِى
إنْ كُنتَ لم تَرحَم ضَنايَ لِبُعدِها أفَلا رَحِمتَ من الأَسَى أوْلادِى

وقولِ شمسِ الدين محمود الكوفىّ يذكرُ خرابَ بغدادَ :

إن كنتَ مِثلى للأحِبَّةِ فاقداً أو فى فؤادِك لوعةٌ وغَرامُ
قِفْ فى ديارِ الظَّاعِنينَ ونَادِها يا دارُ ما صَنَعت بكِ الأيّامُ
يا دارُ أينَ السَّاكنون وأينَ ذيـــاكِ البهاء وذلك الإعظامُ
يا دارُ أينَ زمانُ ربعِكِ مُونِقٌ وشِعارُكِ الإجـــلالُ والإكرامُ

(١٠) الاستبطاء ؛ كقول البهاء زهير :

أَمولاىَ إنى فى هواكَ مُعذَّبٌ وحتّامَ أبقَى فى العذابِ وأُمكثُ

وقـــوله :

يا أنعَمَ الناسِ قُلْ لى إلى مَتَى فيكَ أشْـــقَى

وكقول ابن خفاجةَ الأندلسىّ :

فتًى مَتَى أبقَى ويظعَنُ صاحِبٌ أُودِّع منـه راحِلا غـيرَ آئب
وحتى مَتَى أرْعَى الكواكبَ ساهِراً فمن طالعٍ أخرى الليالى وغارِبِ

وكقول صفوت الساعاتى :

حتى متى وإلَى كم طولُ وَعْدِكُمُ أمَالَهُ أجلٌ قبـلَ انقِضَا أجَلِى

(١١) الاستبعادُ ؛ كقول ابنِ الفارض :

أين مِنِّى ما رُمت هيهاتَ بل أيـــنَ لِعينى باللَّحـــظِ ثمَّ ثَراكا

وكقول مِهيار الدَّيْلمىِّ :

وأبِى كِسْرى عَـلاَ إيوانُه أين فى الناس أبٌ مثلُ أبى

وكقول أبى تمام :

مَن لى بإنسانٍ إذا أغضبتُه وجَهِلتُ كان الحِلمُ رَدَّ جوابِه

وقول الآخـــر :

خَلِيلَىَّ فيما عِشْتُما هـل رأيتُما قتيلاً بكى مِن حُبِّ قاتِلِه قَبْلِى

تمرينـــات

(١)

عين أساليبَ الاستفهامِ فيما يأتى ، وبين المرادَ من كل أسلوب :

(١) قال أبو العلاءِ المعرى يفخَرُ :

أَفوقَ البـــدرِ يُوضَع لى مِهادٌ أم الجَوْزاءُ تحت يَدِى وِسادُ

قَنِعتُ فخِلْتُ أن النجمَ دونِى وسِيَّانِ التقنُّعُ والجِهـــادُ

رُوَيْدَكَ أيُّهـــا العادِى وَرائِى لتُخْبِرَنى . متى نَطقَ الجَمادُ

سَفاهٌ ذَادَ عنك الناسَ حِلْمٌ وغَىٌّ فيـه مَنْفعةٌ رَشـــادُ

أأخمُل والنباهـةُ فىَّ لفـظٌ وأُقتر والقناعة لى عَتـــادُ

(٢) وقال الشاتُّ الظريفُ :

صدودُكَ هل له أمـدٌ قَريبُ ... وَوصْلُك هل يكونُ ولا رَقيبُ
قضاةَ الحسنِ. ما صُنعى بطَرْفٍ ... تَمنَّى مثـلَه الرَّشَأُ الرَّبيبُ
بأَىِّ حُشاشَةٍ وبأىِّ طَرْفٍ ... أُحاولُ فى الهَوَى عَيشاً يَطيبُ
فيا تِلك الذوائبُ هل صَباحٌ ... فلى فى ليلِكُنَّ أَسًى مُذيبُ

(٣) وقال عُمرُ بن الوَردِىِّ :

عَلامَ أردتَ تَهجُرنى عـلامَا ... وتُوقِظُ بالنّـوى إِبلاً نِيامَـا
فهل لاقَيْتَ فى حَلَبٍ هُموماً ... فتُزْمِع عن نواحِيهَا اهتِمامَـا
فلا تَاخُذْ دِمَشْقَ لهـا بَديلاً ... أَغَيْظًا ذاكَ منك أم انتِقـامَا

(٤) وقال شمسُ الدين محمود الكوفِىُّ فى رِثاء بغدادَ :

ما لى وِللأَيَّامِ شَتَّتَ خَطْبُها ... شَمْلى وخَلَّانى بلا خِـلَّانِ
ما للمنازلِ أصبحَتْ لا أَهْلُها ... أَهْلِى ولا جِيرَانُها جِـيرانِى
نَادَيْتُها يا دارُ ما صَنَعَ الأُلَى ... كانوا هُمُ الأَوْطارَ فى الأَوطانِ
أَيْنَ الذين عَهدتُهم وِلعِـزِّهم ... ذُلاًّ تَخِرُّ مَعاقِدُ التِّيجـانِ

(٢)

هات أساليبَ استفهاميةً تؤدى الأغراضَ الآتية بالترتيب :

النفى . التعظيم . التحقير . الاستبطاء . التقرير . الإنكار .

(٣)

(١) أَعِدْ ذكرَ مصرٍ. إنَّ قلبيَ مُولَعٌ بمِصْرَ ومَنْ لى أنْ ترى مُقْلَتِي مِصْرَا
(٢) عندى لِأَجلِ فِراقِكم آلامُ فإلامَ أُعـذَلُ فِيكمُ وأُلامُ
(٣) أَعِنْدى وقدمارَسْتُ كلَّ خَفِيَّةٍ يُصَدَّقُ واشٍ أوْ يُخَيَّبُ سائلُ

الغرض من الاستفهام فى البيت الأوَّلِ التمنى ، وفى الثانى الاستبطاء ، وفى الثالث الإنكار ، فما السبب ؟

(٤)

عين أساليب الإنشاء ونوعَها ، وبين الغرضَ الذى يؤديه كلُّ أسلوب فيما يأتى :

(١) قال دعبل :

أين الشبابُ وأيَّةً سَلَكا لا . أينَ يُطلَبُ ضَلَّ بل هَلَكا
يا لَيتَ شِعْرى . كيف يَوْمُكما يا صاحِبَيَّ إذا دَمِى سُفِكا
لا تأخُذا بظُلامَتِي أحَداً قَلْبِي وطَرْفى فى دَمى اشْتَرَكا

(٢) وقال ابنُ الرومِيِّ يعاتب

يا أخى ؛ أَيْنَ عَهْدُ ذاكَ الإخاء أَيْنَ ما كان بيننا من صَفاء
كشَفَتْ منك حاجتى هَنَواتٍ غُطِّيَت برهةً بحسنِ اللقاء
يا أخى ؛ هَبْك لم تَهَب لى من سَعْـيك حظًّا كسائرِ البُخَلاء
أفَلا كانَ منك رَدٌّ جميلٌ فيه للنفسِ راحةٌ من عَناء

(٥)

كون ثلاثَ جمل استفهامية ؛ أداةُ الاستفهام فى كل منها « هل » واجعل غرضَك فى الأولى من الاستفهامِ المعنى الحقيقىَّ له ، وفى الثانية الإنكارَ ، وفى الثالثة التمنى .

(٦)

كون ثلاثَ جملٍ استفهامية ؛ أداةُ الاستفهامِ فى كل منها « الهمزةُ » واجعل غرضَك من الاستفهام فى الأولى معناه الحقيقىَّ ، وفى الثانية التوبيخَ ، وفى الثالثة التهديدَ .

(٧)

عين أساليبَ الإنشاء ، ونوعَ كل أسلوبٍ فى القطعة الآتية ، ثم انثُرها فى عبارةٍ أدبيةٍ فصيحةٍ ، ورَاعِ فى نثرك المعنى المرادَ من كل أسلوبٍ إنشائى فيها :

قال إسماعيل باشا صبرى فى ساعة التوديع :

أتُرَى أنت خَاذِلى ساعةَ التَّو ... ديعِ يا قلبُ فِى غدٍ أم نصيرِى
وَيْكَ ! قُلْ لى متى أَرَاكَ بجَنْبِي ... راضياً عن مكانِك المَهجورِ
لستَ بعضَ الحداة بَلْ أنتَ بعضى ... قف قليلًا فلستَ بالمأجورِ
ساعةَ البين ، قِطعةٌ أنتِ قُدَّت ... للمُحبِّين من عذاب السعيرِ
لا تحيني . روحى الفِدَاء لِمَاحِيـــكِ غداً من صَحيفةِ المَقدورِ

(٨)

قال دِعبل الخزاعىُّ فى آل بيتِ الرسولِ :

قِفَا نَسأل الدارَ التى خَفَّ أهلُها ... متى عهدُها بالصومِ والصلواتِ
وأين الأُلَى شطَّت بهم غُربةُ النَّوَى ... أفانينَ فى الآفاق مفترقاتِ
بناتُ زيادٍ فى القصورِ مَصونةٌ ... وآلُ رسول الله فى الفلواتِ

ما المراد بالأمر فى : قِفا ، وبالاستفهام فى : متى ، وأين ، وما الغرضُ من الخبرِ فى البيت الثالث ؟

أسلوب التَّمَنِّى

التمنى طلب أمرٍ تحبُّه النفسُ وتميلُ إليه ، ولكنه لا يُرجَى حصولُه ؛ إمَّا لاستحالتِه ، أو لكونه بعيداً لا يُطمَع فى نَيْلِه .

واللفظ الذى وضعَه العرب للتمنى ليت ؛ نحو :

« يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ المُكْرَمِينَ . »

ونحو : « يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ . »

ونحو : « يَا لَيْتَنِى كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً . »

ونحو قول ابن الرومى فى شهر رمضان :

فليتَ الليلَ فيه كان شهراً ... ومرَّ نهارُه مرَّ السحابِ

وقول المتنبي فى رثاء أختِ سيف الدولةِ :

فليت طالعةَ الشَّمْسَيْن غائبـةٌ وليت غائبةَ الشمسين لم تَغِب

وقد يُتَمَنَّى بهل ، ولَعل ؛ لغرض بلاغيٍّ ، وهو إبراز المتمنَّى فى صورة الممكِنِ القريبِ الحصولِ ؛ لكمال العناية بهِ ؛ نحو :

أَسِرْبَ القَطَا هل مَنْ يُعيرُ جَناحَه لعلِّى إلى مَنْ قد هَوِيتُ أَطِيرُ

ونحو : « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا . »

ونحو : « لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ »

وقد يُتَمَنَّى بلو ؛ للإشعار بِنُدرَةِ المتمنَّى وعزته ؛ نحو :

« فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . »

ونحـــو :

ولَّى الشبابُ حميـــدةً أيامُهُ لو كان ذلك يُشتَرى أو يَرجِعُ

وإذا كان الأمر المحبوب مِمَّا يُرجَى حصولُه كان توقعه « ترجِّيًا . » وألفاظه لعل ، وعسى ، نحو : لعل المسافرَ يحضُرُ . « لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا . »

ونحـــو :

عسى الكربُ الذى أمسَيْت فيه يكون وراءه فرجٌ قَريبُ

ونحو : « عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً . »

وقد تُستَعمَل ليت فى التَّرَجِّى لإبراز المَرْجُوِّ فى صورة المستحيل مبالغة فى بُعْدِ نيله ؛ نحو :

فيا ليتَ ما بَيْنِى وبينَ أحِبَّتِى من البُعدِ ما بينى وبينَ المصائب

تمرينات

(١)

بين أساليبَ التمنى فيما يأتى :

(١) أودَى الشَّبَابُ حميداً ذو التَّعاجيبِ أودَى وذلك شَأْوٌ غيرُ مَطلوبِ
ولَّى حَثيثاً وهذا الشَّيْبُ يَتبعهُ لو كان يُدرِكُه رَكضُ اليعاقيبِ

(٢) هل الرِّيحُ إن سارت مُشَرِّقةً تَسْرِى تُؤَدِّى تحياتِى إلى ساكنى مِصرِ

(٣) تربَّص بها الأيامِ عَلَّ صروفَها ستَرمِى بها فى جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ

(٤) ألا ليتَ أيامَ الصفاء جديدُ ودهراً تولَّى يا بُثَيْنُ يعودُ

(٥) فيا مَنْزِلَىْ سَلْمَى سلامٌ عليكما هل الأزمُنُ اللائِى مَضَيْنَ رَواجعُ

(٦) هل الشبابُ ملمٌّ بى فراجعةٌ أيامه لِىَ فى أعقـــاب أيام

(٢)

بين ما يفيدُ التمنى ، وما يفيد الترجى فى الأساليب الآتيةِ ، ووضِّح السببَ فى استعمال ما جاء من الأدوات على غير وضعهِ الأصلىِّ :

(١) واهاً لأيام الصِّبـــا وزمانهِ لو كان أسعفَ بالمُقام قليلاَ

(٢) ألا ليتَ أنِّى حيثُ صارت بِىَ النَّوَى جليسٌ لسَلْمَى كلما عَجَّ مزهَر

(٣) لَهْفِى على تلك المخـــايلِ فيهما لو أُمْهِلَتْ حتى تكونَ شمائِلاَ

(٤) فليتَ هَوَى الأحبة كان عَدْلاً فَحَمَّل كلَّ قلبٍ ما أطاقَا

(٥) عَلَّ الليالى التى أضْنَتْ بفُرقَتِنا جِسْمى سَتَجْمَعُنِى يوماً وتَجْمَعُهُ

(٦) لعلَّ أيامَ السرور تدومُ . (٧) هَلْ بالطُّلُولِ لسائِلٍ ردُّ

(٨) ليت الصديقَ قادمٌ .

(٣)

مثِّل بثلاثةِ أمثلة للتمنى مختلفةِ الأداة ، وبثلاثة للترجى كذلك .

(٤)

اشرح ما يأتى ، وبين أساليبَ الإنشاء ، ونوع كل أسلوب :

قال جمال الدين بنُ نباتة المصرىُّ يَرْثى ولداً له مات صغيراً :

شَتَّانَ ما حالى وحالُك . أنتَ فى غُرَف الجِنانِ ومُهجَتِى فى النارِ

خفَّ النَّجاَ بك يا بُنَىَّ إلى السُّرَى فسَبَقْتَنى وَثَقُلْتُ بالأوزار

ليت الردَى إذْ لم يَدَعْك أهابَ بى حتى نَدوم معاً على مِضمارِ

ليت القَضاَ الجارى تَمَهَّلَ وِرْدُهُ حتى حَسبت عَواقبَ الإصدارِ

أسلوب التقديم والتأخير

قد عرفت أن الجملة تتألف من ركنين هما : المسند إليه ، والمسند . وكثيراً ما يكون معهما فى الجملة قيود لهما ؛ كالتوابع والحال والتمييز والمفعولات والجار والمجرور .

وأنت إذا تأملت أساليب اللغة لا تجد الجمل على صورة واحدة فى تكوينها ؛ فقد تجد المسند إليه مقدّما فى أكثر الأحيان ، ومؤخراً فى بعضها ؛ نحو أَحْسَنَ محمد العَمل ، أحسن العمَلَ محمدٌ . وترى الظرف أو الجار والمجرور مذكوراً بعد الفعل فى أكثر الأساليب ، وقبله فى بعضها ؛ نحو : رَفَعْتُ شَكَاتِى إلى الملك ، وإلى الملك رفعت شكاتى .

لم يكن ذلك ونحوه عَبَثاً فى كلام البلغاء ؛ فإن الأصلَ أن يَتَقَدَّمَ المبتدأ على خبره ، والفعل على متعلقاته ، ولكنهم قد يَعْدِلُونَ عن الأصل لأحوال ودواع تقتضى ذلك ، فتجعل لقولهم رقة وروعة .

وسنذكر لك بعض هذه الأحوال فى أمثلة مفصلة ، تتذوّق فيها تلك اللطائف البلاغية ؛ فمنها :

١ — الإشارة إلى أن المتأخر من فعل ونحوه مختص بما تقدم عليه : ويكون ذلك فى المفعول ؛ نحو قوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» . وفى الظرف؛ نحو : عند الشدائد تعرف الإخوان . وفى الجار والمجرور؛ نحو قوله تعالى : « أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْاُمُورُ » ، « لَهُ الْمُلْكُ

وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . » « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ . » وفى الحال ؛ نحو : مسرورًا أقبل أخوك . وفى المبتدإ إذا أسند إليه فعل[1] نحو : ما أنا قصرت فى حاجتك ؛ تريد أنه لم يقع منك تقصير ، وأنت لا تنفى أن يكون التقصير وقع من غيرك ، ولهذا لا يصح أن تقول : ما أنا قصرت ولا غيرى .

٢ — تقوية الحكم وتقريره : نحو : هو يعطى الجزيل ، وأنت لا تكذب ؛ لما فى ذلك من تكرير الإسناد ، ومنه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ . » فهذا أبلغ فى تأكيد نفى الإشراك مما لو قيل : والذين لا يشركون بربهم ، أو بربهم لا يشركون .

٣ — الاهتمام بالمتقدم ؛ نحو قوله تعالى : « أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ . » فإن الاستفهام التعجبي واقع على ما بدا من إبراهيم من الرغبة والانصراف عن تلك الآلهة ، لا على ذات الفاعل ، ولو قيل : أأنت راغب عن آلهتى يا إبراهيم ؛ لكان التعجب واقعاً على ذات الفاعل ، ولأفاد الكلام أنه لو كانت الرغبة من غيره لما تُعُجِّبَ منها .

وكل همزة استفهام تستعمل فى معناها أو فى غيره — كالتعجب والإنكار — إن وَلِيَهَا الفعلُ ؛ كان هو المقصود بمعناها ، وإن وليها الاسم كان هو المراد المقصود ؛ فإن قلت : أسافر على ؟ كان الشك فى

(١) لأن المبتدأ فى هذه الحالة يكون فى حكم الفاعل يقدم على فعله .

السفر، وإذا قلت : أعلى سافر؟ كان السفر مفروضاً والمستفهم عنه ذَات المسافر.

وقس على هـذا ما تكون الهمزة فيه لغير الاستفهام، كالإنكار فى نحو قوله تعـالى : « قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ. » فإن الإنكار لم يقع على أنه يَبْغِى ربًّا، ولكنه وقع على أن يكون المَبْغِى ربًّا غير الله.

تمرينـــات

(١)

فى الأمثلة الآتية تقديم، فما نوع المقدم، وما فائدة التقديم :

(١) قال تعالى : « لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْـلُ وَمِنْ بَعْدُ. »

(٢) وقال تعالى : « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً. »

(٣) قال أبو فراس :

إِلَى اللهِ أَشْـكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلٍ تحَكَّمُ فِي آسَادِهِنَّ كِلاَبُ

(٤) وقال ابن نباتة يخاطب الحسن بن محمد المُهَلَّبِي :

وَلِي هِمَّـةٌ لاَ تَطْلُبُ الْمَـالَ لِلْغِنَى وَلَـكِنَّهَا مِنْكَ المَـوَدَّةَ تَطْلُبُ

(٥) وقال أبو نواس :

إِنِّى انْتَجَعْتُ العَبَّاسَ مُمْتَدِحاً وَسِيلَتِى جُودُهُ وَأَشْـعَارِى
عَنْ خِـبْرة جِئْتُ لاَ مُخَاطَرَة وبِالدَّلاَلاَتِ يَهْتَـدِى السَّارِى

(٦) قال الأبيوردى :

وَمِنْ نَكَدِ الأَيَّامِ أَنْ يَبْلُغَ الْمُنَى ... أَخُو اللُّؤْمِ فِيهَا وَالْكَرِيمِ يَخِيبُ

(٧) وقال أبو الطيب المتنبى يهجو كافورا :

مِنْ أَيَّةِ الطُّرْقِ يَأْتِي مِثْلَكَ الْكَرَمُ ... أَيْنَ الْمَحَاجِمُ يَا كَافُورُ وَالْجَلَمُ

(٨) وقال المعرى :

أَعِنْدِى وَقَدْ مَارَسْتُ كُلَّ خَفِيَّةٍ ... يُصَدَّقُ وَاشٍ أَوْ يُخَيَّبُ سَائِلُ

(٩) وقال أيضاً :

إِلَى اللهِ أَشْكُو أَنَّنِى كُلَّ لَيْلَةٍ ... إِذَا نِمْتُ لَمْ أَعْدَمْ خَوَاطِرَ أَوْهَامِ

فَإِنْ كَانَ شَرًّا فَهْوَ لا شَكَّ وَاقِعٌ ... وَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَهْوَ أَضْغَاثُ أَحْلَامِ

(١٠) وقال أيضاً .

وَكَالنَّارِ الْحَيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ ... أَوَاخِرُهَا وَأَوَّلُهَا دُخَانُ

(١١) وقال بعض الشعراء فى الحث على المعروف :

يَدُ الْمَعْرُوفِ غُنْمٌ حَيْثُ كَانَتْ ... تَحَمَّلَهَا شَكُورٌ أَوْ كَفُورُ

فَفِى شُكْرِ الشَّكُورِ لَهَا جَزَاءٌ ... وَعِنْدَ اللهِ مَا جَحَدَ الْكَفُورُ

(١٢) وقال الآخر .

أَنَلْهُو وَأَيَّامُنَا تَذْهَبُ ... وَنَلْعَبُ وَالدَّهْرُ لا يَلْعَبُ

(١٣) وقال محمد بن وهيب يمدح الخليفة المعتصم (وكنيته أبو إسحق) .

ثَلاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا ... شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَقَ وَالْقَمَرُ

(١٤) وقال آخر :

ثَلاثَةٌ يُجْهَلُ مِقْدارُها الأَمْنُ وَالصِّحةُ وَالقُوتُ
فَلا تَثِقْ بِالْمالِ مِنْ غَيْرِها لَوْ أَنَّهُ دُرٌّ ويَاقُوتُ

(١٥) وقال آخر يهجو بخيلاً :

أَ أَنْتَ تَجُودُ إِنَّ الْجُودَ طَبْعٌ وَما لَكَ مِنْهُ يا هَذَا نَصِيبُ

(١٦) وقال آخر يستنكر أن يشرب الخمر حين دُعِيَ لشربها :

أَبَعْدَ سِتِّينَ قَدْ نَاهَزْتُهَا حِجَجًا أُحَكِّمُ الرَّاحَ فِي عَقْلِي وَجُسْمَانِي

(١٧) وقال الآخر :

فَافِلْ أَنْتَ وَاللَّيَالِي حَبَالَى بِصُنُوفِ الرَّدَى تَرُوحُ وَتَغْدُو

(١٨) وقال ابن المعتز :

وَمِن عَجَبِ الأَيَّامِ بَغْيُ مَعَاشِرٍ غِضَابٍ على سَبْقِي إذا أَنا جَارَيْتُ
يَغِيظُهُمُ فضلي عليهم ونَقْصُهُمْ كَأَنِّيَ قَسَّمْتُ الحظوظَ فخايَبْتُ

(٢)

ما الفرق فى المعنى بين المثالين الآتيين ؟

(١) أنال محمد جائزة ؟

(٢) أمحمد نال جائزة ؟

أسلوب الذكر والحذف

إذا قلت : رأيت الأمير اليوم فى الحديقة راكباً جواداً ، وأنت تريد أن تدل السامع على هذا المعنى كاملا ، لا يجوز لك أن تحذف لفظاً من هذه الجملة ؛ إذ لا يمكن معرفة معناه إذا حذف .

وإذا سئلت : وأين ذهب الأمير بعد ؟ فقلت : الأمير عاد إلى قصره ، كان من الجائز أن تحذف المبتدأ للعلم به من قرينة السؤال ، وتقول : عاد إلى قصره . فأيهما أفضل فى مثل هذه الحالة ، الذكر أم الحذف ؟

نرجع إلى أساليب البلغاء فنجدهم قد ذكروا أحياناً ما يجوز أن يُسْتَغْنَى عنه ، وحَذَفُوا ما لا يُوجَدُ مانِعٌ من ذِكْرِه ، فرجحوا الذكر أحياناً ، والحذف أحياناً ، لأسباب بلاغية اقتضت ذلك .

وسنشرح لك بعض أمثلة من بليغ القول ، لندلك فيها على تلك الأسباب . وأكثر ما يكون الحذف من الجملة فى أجزائها الآتية :

١ — المبتدأ : كقول بعضهم مادحا :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... أَيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

فَتًى غَيْرُ مَحْجُوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشَّكْوَى إِذا النعل زَلَّتِ

يريد هو فتى . وأكثرُ ما يكونُ ذلك حين يَبْدَأُ المتكلم بذكر شىء ، ويُقَدِّمُ بعض أمره ، ثم يدع الكلام الأول ويستأنف كلاماً آخر .

وكقول الآخر يذم ابن عمه وقد لَطَمَه :

سريعٌ إلى ابنِ العم يَلْطِمُ وجْهَهُ وليس إلى داعِي النَّدى بِسريعِ
حَرِيصٌ على الدنيا مُضِيعٌ لِدِينِه وليس لما فِي بيته بِمُضِيعِ

يريد : هو سريع ، وهو حريص .

وكقول الآخر يخاطب امرأته وقد لامته على الجود :

قَالت سُمَيَّةُ قد غَوَيْتَ بأن رأت حَقا تَنَاوَبَ ما لنا ووُفُودا
غَيٌّ لَعَمْرُكِ لا أزال أعودُهُ ما دام مالٌ عندنا موجودا

يريد : ذلك غيٌّ لا أزال أعود إليه ما دام لى مال ، ولا سبيل إلى تركه وإن أكثرت اللوم .

فأنت ترى فى هذه الأمثلة المبتدأ محذوفاً ؛ لا لأن فى الكلام مايدل عليه فحسب ، ولكن لأن حذفه أكسب القول جمالاً وقوة ، يذهبان لو ذكر .

ويحذف المبتدأ كذلك لانتهاز الفرصة كقولك للصياد : غزال ، تريد هذا غزال . وفى ذكر المبتدأ تفويت لمفاجأته بالصيد ، وكقولك لمن تحذره الدنو من ثعبان : ثعبان .

(٢) الفاعل : ويكون حذفه حين لا يتعلق الغرض بذكره ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وجِلَتْ قُلوبُهُمْ ، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا . » فبنى الفعلان : «ذكر ، وتلى»

للمجهول ؛ لعدم تعلق الغرض بِشَخْصَيِ الذاكر والتالى ؛ وكقوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فانْتَشِرُوا فى الأرض » ، إذ المعنى قضيتم ، ولا حاجة لذكر الفاعل لأنه معلوم .

وقد يكون الحذف للجهل به ، كأن ترى مدرسة فى إحدى القرى فتقول مُخبِراً : بُنِيَتْ فى قرية كذا مدرسةٌ ، لأنك لا تعلم البانى . أو يكون للخوف منه أو عليه ، كما تقول : قُتل فلان ، فلا تذكر القاتل ؛ رهبة منه ، أو إشفاقاً عليه .

٣ — المفعول به : وذلك حين تريد وقوع الفعل بقطع النظر عما يتعلق به ؛ نحو قوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » ؛ إذ المعنى هل يستوى من له علم ، ومن لا علم له ، بقطع النظر عن أن يكون المعلوم طبًّا أو حساباً أو تاريخاً مثلاً .

ومن هذا أن تقول فى الوصف : فلان يُعْطِى ويَمْنَع ، أو يَضُرُّ ويَنْفَع ؛ تريد إثبات الأفعال فى عمومها له . ولو قلت يعطى المساكين ، أو يعطى الذهب — لكان فى قولك قَصْرٌ للعطاء على حالة مخصوصة ، وكأنك تَرُدُّ بذلك على من ينكر أنه يعطى المساكين ، أو أنه يعطى الذهب — لا أنك تريد إثبات الإعطاء فى عمومه وشموله ، وهو ما أردته بمدحك .

ومن هذا قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . » فقد حذف مفعول : يَسْقُون ، وتَذُودَانِ ، ويُصْدِر ، وسَقَى ؛ وجاءت هذه الأفعال مطلقة ؛ إذ الغرض أن يُعْلَمَ أنه كان من الناس سَقْى ، ومن المرأتين ذَوْدٌ ، وأن موسى سقى لهما . أما كَوْنُ المَسْقِىِّ غَنَماً أو إبلاً أو غيرهما فخارج عن الغرض ، وقد يوهم ذكره خلاف المقصود ؛ إذ لو قيل تذودان غنمهما مثلاً ، لجاز أن موسى إنما أنكر الذود لأن المَذودَ غنم ، ولو أنه كان إبلا مثلا لما أنكره .

ومثال هذا أن تقول : أتساعد الظالم ! فأنت لا تنكر المساعدة من حيث هى مساعدة ؛ بل لأنها مساعدة ظالم .

فقد تبين لك أن لِحَذْفِ المفعول به فى هذا النحو جَمَالاً ورَوْعَةً لا تجدهما إذا ذكر .

ومن هذا أيضاً قول البحترى :

إذا أَبْعَدَتْ أَبْلَتْ و إن قَرَّبَتْ شَفَتْ ... فَهِجْرَانها يُبْلِى ولِقْيانُها يَشْفِى

لم يقل أَبْلَتْنى وشَفَتْنى ؛ لأنه أراد ما هو خَيْرٌ من هذا وأَبْلَغ فى المدح ، أراد أَنَّ نُعْدَها فى ذاته داء ، وأن قُرْبها شفاء . ولا سبيل إلى أن يَجْعَلَ لها هذا الأَثَرَ العجيب إلاّ بحذف المفعول .

ولننتقل بك إلى مُرَجِّحَاتِ الذكر حين لا يكون من الحذف مانع ، وأهَمُّ هذه المرجحات :

أوّلاً — زيادة التقرير والإيضاح : ومن أمثلة ذلك رسالة الحسن البَصْرى لِعُمَرَ بن عبد العزيز فى وصف الإمام العادل ، ومنها قوله : « الإمام العَدْلُ يا أمير المؤمنين كالراعى الشَّفِيق على إبله ، الرفيق الذى يَرْتَادُ لها أَطْيَبَ المرعى ، ويَذودُها عن مَوَاقِعِ الْهَلَكَة . والإمام العَدْلُ يا أمير المؤمنين كالأَبِ الحانى على وَلَدِه ، يَسْعى لهم صِغَارًا ، وَيُعَلِّمهم كباراً ، يَكتسب لهم فى حياته ، ويَدَّخِرُ لهم بعد مماته والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح تَصْلح بصلاحه ، وتَفْسُدُ بفساده . » فتراه كَرَّرَ ذِكْرَ المسند إليه لزيادة التقرير والإيضاح. ومن هذا قوله تعالى: « أولٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون . » ، أعيد ذِكْرُ « أولئك » ؛ لتأكيد ثبوت الفلاح لهم، وقصره عليهم.

ثانياً — بسط الكلام حين يحسن الإطناب : وذلك إذا كان إصغاء السامع مطلوباً للمتكلم ؛ كما فى قوله تعالى : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ . » ولو قال « عصاى » لكفى فى الإجابة ،

ولكنه أراد أن يطيل الحديث فى مناجاته لربه ؛ ليزداد بذلك شرفاً وفضلاً.

وبعد ؛ فقد أطلنا لك القول فى التقديم والتأخير ، وفى الذكر والحذف ، مَرْجِعُكَ فى ذلك كله إلى الذوق الأدبى ؛ فهو الذى يُوحِى إليك بما فى القول من بلاغة وحُسْنِ بيان .

تمرينـــات

(١)

عيِّن أسباب الحذف ، ونوع المحذوف فى الأمثلة الآتية :

(١) قال تعالى :

« ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُون . »

(٢) قال صلى الله عليه وسلم :

« عَلاَمَةُ الْمُؤْمِنِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى ، وإِذَا اؤْتُمِنَ لَمْ يَخُنْ . »

(٣) وقال :

« يقول ابن آدم مَالِى مَالِى ، وإِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ . »

(٤) وقال :

« إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَىَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّى مَجَالِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ — أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقاً ، الموطَّئُونَ أَكْنَافاً ، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ . »

(٥) قال أبو العتاهية :

جَزَى اللهُ عَنِّى صَالِحًا بِوَفَائه ... وَأَضْعَفَ أَضْعَافًا لَهُ فِى جَزَائه

صَدِيقٌ إِذَا مَا جِئْتُ أَبْغِيهِ حَاجَةً ... رَجَعْتُ بِمَا أَبْغِى ، وَوَجْهِى بِمَائه

(٦) قال أبو نُوَاس :

إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رِكَابُنَا ... فَأَىَّ فَتًى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ

فَتًى يَشْتَرِى حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ ... وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

فَإِنْ تُوَلِنِى مِنْكَ الْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ ... وَإِلاَّ فَإِنِّى عَاذِرٌ وَشَكُورُ

(٧) قال البُحْترى يمدح الفَتْحَ بن خاقان :

رَزِينٌ إِذَا مَا الْقَوْمُ خَفَّتْ حُلُومُهُم ... وَقُورٌ إِذَا مَا حَادِثُ الدَّهْرِ أَجْلَبَا

فَتًى لَمْ يُضَيِّعْ وَجْهَ حَزْمٍ وَلَمْ يَبِتْ ... يُلَاحِظُ أَعْجَازَ الْأُمُورِ تَعَقُّبَا

(٨) وقال الشاعر :

مَنْ قَاسَ جَدْوَاكَ يَوْمًا ... بِالسُّحْبِ أَخْطَأَ مَدْحَك

السُّحْبُ تُعْطِى وَتَبْكِى ... وَأَنْتَ تُعْطِى وَتَضْحَك

(٩) وقال المتنبى :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا ... جَزَيْتُ على ابْتِسَامٍ بِابْتِسَام

وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيه ... لِعِلْمِى أَنَّهُ بعضُ الأنَام

(١٠) وقال :

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّالُ

(١١) وقال أبو فراس :

لَا تَطْلُبَنَّ دُنُوَّ دَا ... رٍ مِنْ خَلِيلٍ أَوْ مُعَاشِر
أَبْقَى لِأَسْبَاب الْمَوَدَّ ... ة أَنْ تَزُورَ وَلَا تُعَاشر

(٢)

عين أسباب الذكر فى الأمثلة الآتية :

(١) قال الله تعالى :

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ . »

(٢) قال مَرْوانُ بْنُ أبى حَفْصَةَ يمدح مَعْنَ بن زائدة :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهَا فِي بَطْنِ خَفَّانَ أَشْبُلُ
هُمُ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا ... لِجَارِهِمُ بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ

(٣) قال السَّمَوْءَلُ بن عادياء :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا ... فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

(٤) قال بشار :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى القَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

(٥) وقال الشاعر :

الجِدّ يُدْنِى كُلَّ أَمْرٍ شَاسِعٍ وَالجِدّ يَفْتَحُ كلَّ بَابٍ مُغْلَق

(٣)

فى الأمثلة الآتيـة حذف وذكر ؛ فَعيِّن المحذوفَ والمذكورَ ، وَوَضِّحْ سبب ذلك :

(١) قال تعـالى :

« وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . »

(٢) وقال :

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى . »

(٣) وقال :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . »

(٤) وقال :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . »

(٥) وقال :

« وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . »

(٦) قال زهـــير :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ ... على قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لاَ يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

(٧) وقال الحطيئة :

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ ... وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمَحَامِدِ يَحْمَدِ
كَسُوبٌ وَمِتْلاَفٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ ... تَهَلَّلَ وَاهْتَزَّ اهْتِزَازَ الْمُهَنَّدِ

الإيجاز والإطناب والمساواة

إذا أردت أن تتحدّث إلى الناس فى معنى من المعانى فأنت تعبر عنه تعبيرًا صحيحاً مقبولاً فى صور ثلاث ، وهى :

١ — المساواة : وهى أن تكون الألفاظ على قدر المعانى .

٢ — الإيجَاز : وهو وضع المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة وافية بها ، وإلا كان إخلالاً ، فلا يعدّ الكلام صحيحاً مقبولاً .

٣ — الإطناب : وهو تأدية المعنى بألفاظ أكثر منه لفائدة ، فإن لم تكن الزيادة لفائدة فهى حشو أو تطويل .

وفى كتاب الله الكريم معانٍ كثيرة عبر عنها بهذه الصور الثلاث فى مواضع مختلفة منه ، لأن المقام فى كل موضع يناسبه صورة منها .

فمن ذلك الدلالة على « أن كل إنسان مجزى بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر » ، فقد عبر عن هذا المعنى فى هذه الصور الثلاث فى الآيات الكريمة التالية :

(١) فمن المساواة قوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . »

(٢) ومن الإيجاز قوله تعالى : « كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . »

(٣) ومن الإطناب قوله تعالى : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا . »

ولا يعدّ الكلام فى صورة من هذه الصور بليغاً إلا إذا كان مطابقاً لمقتضى الحال ، فإذا كان المقام للإطناب مثلا وعدلت عنه إلى الإيجاز أو المساواة لم يكن كلامك بليغا .

المساواة

ولسنا بحاجة إلى الكلام على المساواة ؛ فإنها الأصل الذى يكون أَكْثَرُ الكلام على صورته . ومن أمثلتها من بليغ النثر قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا . »، « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤْمِنُون ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . »

ومن الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُك. » ومن جيد النثر قول على كرم الله وجهه : « عَاتِبْ أَخاكَ بِالإِحْسَانِ إِلَيْه ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعَامِ عَلَيْه — لاَ يَنَالُ الْعَبْدُ نعْمَة إِلَّا بِفِراقِ أخرى ، ولا يَسْتَفيدُ يَوْماً مِن عُمره إِلَّا بفراق آخَرَ مِنْ أجَلِهِ . »

ومن الشعر قول الأعشى فى اعتذاره إلى أَوْس بن لَأْم بعد أن هجاه :

وَإِنِّى عَلَى مَا كَانَ مِنِّى لَنَادِمٌ ... وإنى إلى أَوْسِ بْنِ لَأْمٍ لَتَائِبُ
فَهَبْ لِى حَيَاتِى فَالْحَيَاةُ لِقَائِمٍ ... بِشُكْرِكَ فيهَا خَيْرُ ما أَنْتَ وَاهِبُ
سَأَمْحُو بِمَدْحِى فِيكَ إِذْ أَنَا صَادِقٌ ... كِتَابَ هِجَاءٍ سَارَ إِذْ أَنَا كَاذِبُ

ومن ذلك قول النابغة الذُّبيانى يعتذر إلى النُّعْمان :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِى هُوَ مُدْرِكِى ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

هذه أمثلة قدّمناها لك فى المساواة كما ترى ، لا يستغنى الكلام فيها عن لفظ منه ، ولو حذف منه شىء لأخل بمعناه .

الإيجاز

قد ذكرنا لك أن الإيجاز هو وضع المعانى الكثيرة فى ألفاظ أقل منها . وهذه القلة إما أن تكون بحذف كلمة ، أو جملة ، أو أكثر ، عند وجود ما يدل على المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية . ويسمى هذا النوع إيجاز حَذْف .

وإما أن تكون بتضمين المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة بدون حذف ، ويسمى هذا النوع إيجاز قِصَرٍ . وسنفصل لك النوعين بأمثلة مختارة .

١ — إيجاز الحذف : يقع إيجاز الحذف بكثرة فى أساليب البلغاء ، متى وُجِدَ ما يدل على المحذوف ، وهو نوعان :

أولا : حذف مفرد ، ويكون « فعلا » نحو قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا . حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » التقدير : ولو ثبت أنهم صبروا . وفى نحو : أهلا وسهلا ؛ إذ التقدير لقيت أهلا ، ونزلت سهلا . وقد يكون « فاعلا » ؛ كقول حاتم :

أَمَاوِيُّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

يريد : حشرجت الروح . ويكون « مفعولا » وهو كثير ؛ نحو : الملك يُعْطِي وَيَمْنَعُ . تريد يعطى من يشاء ويمنع من يشاء . ويكون « مضافاً » ؛ نحو قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا » المراد أهل القرية . ويكون « حرفا » ؛ نحو قوله تعالى : « قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ » ؛ المراد : لا تفتأ ، فحذفت (لا) النافية . ومن هذا قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

يريد : لا أبرح .

وقول قيس بن عاصم المنقرى فى الخمر :

فلا والله أشْرَبُهَا حَيَاتِى ولَا أسْقِى بِهَا أبداً نَدِيما

يريد : لاأشربها .

ثانياً : حذف جملة أو أكثر ؛ فمن حذف الجملة قوله تعالى : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ . » التقدير : أفمن شرحَ الله صدره يشبه من قسا قلبه .

وقوله تعالى : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ؛ والتقدير لعجّل لكم العقوبة . ومن حذف الجمل قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام : « اذْهَبْ بِكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ » ؛ التقدير : فذهب بالكتاب ، وألقاه إلى بلقيس ، فلما قرأته ، قالت يأيها الملأ . . .

٢ — إيجاز القصر : وهو كما علمت إيجاز لا يقدر فيه محذوف ، ويسمى « إيجاز البلاغة » ؛ لأن الأقدار تتفاوت فيه . ومثاله من الكتاب الكريم قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ؛ فقد جمع الله فى هذه الآية الكريمة مكارم الأخلاق ، وما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى معاملة الناس جميعاً ، لتتم له ولهم السعادة . وقوله تعالى : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ » ؛ فقد اكتمل

فى هذه الكلمات كل صفات الله تعالى ، حتى قال عمر بن الخطاب : « مَنْ بَقِيَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ فَلْيَطْلُبْه . » وقوله تعالى : « وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ » ؛ فقد تضمنت الآية الكريمة أن القصاص هو سبب ابتعاد الناس عن القتل ، فهو الحافظ للحياة . ومن الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : « الطَّمَعُ فَقْرٌ ، واليأسُ غنًى » . ومن الحكم قول الحارث بن كَلَدَةَ طبيب العرب : « المِعدَةُ بَيْتُ الدَّاء ، والحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاء ، وَعَوِّدُوا كُلَّ جِسْمٍ مَا اعْتَادَ . » ؛ فقد جُمِعَت الحكمةُ كلها فى هذه الجمل الثلاث . ومن ذلك قول على كرَّم الله وجهه : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ قَدْرَهُ . مَنْ فَكَّرَ فى الْعَوَاقِبِ لَمْ يَشْجُعْ . الناس أَعْدَاءٌ لِمَا جَهِلُوا آلةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ . ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ . » وسمع النبى بعض الأعراب يقول فى دعائه : « اللهم هَبْ لى حَقكَ ، وَأَرْضِ عنِّى خَلْقَكَ . » فقال : « هذا هو البلاغة . »

ومن الشعر قول السموءل بن عادياء الغسَّانى :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

فقد اشتمل البيت الثانى على مكارم الأخلاق : من سماحة ، وشجاعة ، وحلم ، وصبر ، وتواضع ، واحتمال مكاره فى سبيل طلب الحمد .

وقول أبى تمام :

وَظَلَمتَ نَفْسَكَ طَالِباً إِنْصَافَهَا فَعَجِبْتُ مِنْ مَظْلُومَةٍ لَمْ تُظْلَمِ

يريد أنه كَلَّفَ نفسه احتمال المشاق ، وأكرهها على الصبر فى طلب المجد ، فكان كالظالم لنفسه ، ولكنه فى الحقيقة قد أنصفها ؛ إذ أكسبها بما تحملته الذكر الحسن ، والثناء الجميل ، فهو لها غير ظالم .

الإطنـــاب

ذكرنا فى الإطناب أن زيادة الألفاظ على المعنى يجب أن تكون لفائدة ، وإلا كانت الزيادة حشواً أو تطويلاً ، وهما مخلان ببلاغة الكلام ، بل لا يعد الكلام معهما إلا ساقطاً عن مراتب البلاغة كلها .

١ — فأما الحشو : فهو أن تكون فى الكلام زيادةٌ مُتَعَيِّنَةٌ لا يَفْسُدُ بها المعنى ، كقول الهُذَلِىّ :

ذَكَرْتُ أخى فَعَاوَدَنِى صُدَاعُ الرَّأسِ وَالوَصَبُ

فذكر (الرأس) حشو ؛ لأن الصداع لا يكون إلا فى الرأس .

وكقول زهير :

وأَعْلَمُ عِلْمَ اليوم والأمس قَبْلَهُ وَلَـكِنَّنِى عَنْ عِلْمِ ما فِى غدٍ عمِى

فكلمة (قبله) حشو ؛ لأن الأمس لا يكون إلا قبلاً .

ومن هـذا النوع ما تراه بكثرة فى الشعر ، من قولهم : لعمرى ، ويا خليلى ، ويا صاحبى — حين لا يكون ما يدعو إلى القسم ، ولا يوجد من ينادَى من خليل أو صاحب ، كقول البحترى :

مَا أَحْسَنَ الأَيَّامَ إلاَّ أَنَّهـا يَا صَاحِبَيَّ إِذَا مَضَت لم تَرْجِعِ

ويكثر فى النثر ذكر أصبح ، وأمسى ، ونحوها ، مما لا يراد به تعيين الزمن ؛ كما يقولون : قد أصبح فلان ثَرِيًّا . أما إذا أريد الزمن فلا يكون حشوا .

٢ — وأما التطويل : فهو أن تكون الزيادة غير متعينة كقول عَدِىّ :

وأَلْفَى قولها كَذِبًا وَمَيْنَا

فالكذب ، والمين ، بمعنى واحد ، وإحدى الكلمتين زائدة ، فلا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت . وكقول الحطيئة :

قَالَتْ أُمامَةُ لاَ تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا إنَّ العَزَاءَ وَإن الصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا
هَلَّا الْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً مَالاً نَعِيشُ بِهِ فِى النَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فالعزاء ، والصبر ، بمعنى واحد . وكذلك المال ، والنشب .

وكقول المُنَخَّل اليَشْكُرِىّ :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدْرَ فى اليوم المَطِير
الكاعب الحسنـاء تَرْ فلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحرير

فالدمقس ، والحرير يكاد معناهما يكون واحداً . والذى يُهَوِّنُ هذا أن يكون للشاعر عُذْرٌ من القافية يضْطَرُّهُ إلى الزيادة .

ونعود بك إلى ذكر أنواع الإطناب التى لا تخل ببلاغة القول ، فنذكر لك أشهرها فى أمثلة مختارة .

أنواع الإطناب

١ — الإيضاح بعد الإبهام : وهو أن يذكر المعنى مجملا ، ثم مفصلا ، فيزيده ذلك نبلا وشرفا . ومن ذلك قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عذَابٍ أَلِيم . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِه ، وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ . » فقد أبهم التجارة إبهاماً يدعو إلى الشوق إلى معرفتها ، ثم فسرها بقوله : « تؤمِنونَ ... » وكقوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِين . » فأبهم فى كلمة « الأمر » لتوجيه الذهن إلى معرفته ، ثم وضحه بعد ذلك تهويلًا لأمر العذاب .

ومن هذا قول النابغة الجَعْدِىّ :

المَرْءُ يَرْغَبُ فِى الحَيا ... ةِ وَطُولُ عَيْشٍ قَدْ يَضُرُّه
تَفْنَى بَشَاشَتُهُ وَيَبْـ ... ـقَى بَعْدَ حُلْوِ العَيْشِ مُرُّه
وَتَسُوءُهُ الأيَّامُ حَتَّـ ... ـى مَا يَرَى شَيْئاً يَسُرُّه

فقد أجمل فى البيت الأول ما ينال الإنسان من الضرر إذا طالت به الحياة ، ثم فَصَّلَ ذلك فى البيتين التاليين ، فزاد المعنى جمالًا وحسناً .

٢ — ذكر الخاص بعد العام : ويكون للتنبيه على مَزِيَّةٍ وفَضْل فى الخاص ، وذلك كقوله تعالى : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ

الْوُسْطَى . » خص الصلاة الوسطى (وهى العصر) بالذكر لزيادة فضلها . وقوله تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ . » فالأمر بالمعروف داخل فى عموم الدعوة إلى الخير، ولكنه خص بالذكر للإشارة إلى مكانه من الشرف والفضل . وقوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا . » فذكر « الجبال » وهى من الأرض للإشارة إلى تفخيم شأن الأمانة ، وأن حملها ليس بالهين اليسير ؛ فإن الجبال على عظمها أشفقت من حملها .

٣ — التكرير : ويكون ذلك لتقرير المعنى فى النفس ؛ كما فى قوله تعالى : « كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُون » ؛ فقد أكد الإنذار بتكريره ليكون أبلغ تأثيراً ، وأشد تخويفاً .

وقد تكررت فى بعض سور القرآن الكريم آيات للمبالغة فى التحذير، كما فى سورة « المرسلات » ، وسورة « القمر » . أو للتذكير بنعم الله التى لا تحصى ؛ كما فى سورة « الرحمن » .

وقد يكون التكرير للترغيب فى قبول النصح ، كقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَاد . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذه الْحَيَاة الدُّنْيَا مَتَاع ، وإِنَّ الْآخرَة هىَ دَارُ القَرَار » ، ففى تكرير « يا قوم » تَعْطِيف لقلوبهم ؛ حتى لا يَشُكُّوا فى إخلاصه لهم فى نُصْحه .

وقد يكون لطول الفصل ؛ كما فى قوله تعالى فى قصة يوسف : « يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ » ؛ فكرر (رأيت) لطول الفصل . ومن هذا قول الشاعر :

أَسِجْناً وَبُعْدًا وَاشْتِيَاقاً وَغُرْبَةً وَنَأْىَ حَبِيبٍ ، إِنَّ ذَا لَعَظِيم
وإِن امْرَأً دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هَذَا ، إِنَّهُ لَكَرِيم

فكرر (إن) فى قوله : إنه لكريم ؛ لطول الفصل بين اسم إن التى فى أول البيت وخبرها ، وهو قوله لكريم .

٤ — التذييل : ويكون بتعقيب جملة بجملة أخرى مشتملة على معناها لتأكيد منطوق الأولى أو مفهومها ، (فالأول) كقوله تعالى : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » ؛ فجملة « إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » مؤكدة لمنطوق ما قبلها . وكقول الحطيئة :

تَزُورُ فَتًى يُعْطِى عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمَحَامِدِ يُحْمَدِ

فالشطر الثانى توكيد لمنطوق الأول .

(والثانى) كقول النابغة الذبيانى :

ولستَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ أىُّ الرجالِ المُهَذَّبُ

فمفهوم قوله : ولستَ بمستبق أخاً لا تامه على شعث ، أنه لا يوجد من كملت فيه الفضائل ، وهذا هو معنى التذييل بقوله « أى الرجال المهذب » .

ومن التذييل ما يجرى مجرى المثل ، فى استقلاله بمعناه ، وجريانه على الألسنة ، كما فى الأمثلة السابقة . ومنه ما لا يجرى مجرى المثل ؛ لأن معناه لا يفهم إلا بما قبله ، كقوله تعالى : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ » ؛ فقوله « وَهَلْ نجَازِى إِلَّا الْكَفُور » تذييل لا يجرى مجرى الأمثال ؛ إذ المراد الجزاء المدلولُ عليه فى الآية السالفة .

ومن هذا النوع قول ابن نباتة السعدى :

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِى شَيْئاً أُؤَمِّلُه تَرَكْتَنِى أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلا أَمَلِ

فجملة « تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل » لا يفهم معناها إلا بما قبلها .

وقد اجتمع النوعان فى قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ . » فقوله : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . » تذييل لا يجرى مجرى المثل ، وقوله : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ . » مما يجرى مجرى الأمثال .

٥ — الاعتراض : وهو أن يؤتى فى خلال الكلام ، أو بين كلامين متصلين فى المعنى ، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب ، لفائدة زائدة . فمن أمثلة ذلك قوله تعالى : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ . » فجملة (سبحانه) معترضة للمبادرة إلى التنزيه ، وقوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ . » ففى قوله : « وانه

لقَسَمٌ — لو تعلمونَ — عَظيمٌ . » اعتراضان : أحدهما (وإنه لقسم عظيم) والآخر (لو تعلمون) ، أريد بهما تعظيم القسم وتفخيم أمره ، وفى ذلك تعظيم للمقسم عليه ، وتنويه برفعة شأنه .

ومن هذا قول كُثَيِّر عزة :

لَوَ انَّ الْبَاخِلِينَ — وَأَنْتِ مِنْهُمْ — رَأَوْكِ تَعَلَّمُوا مِنْكِ الْمِطَالَا

فعجل بقوله : (وأنت منهم) للتصريح بما قصده من اللوم .

وقول عوف بن محلِّم :

إنَّ الثَّمَانِينَ — وَبُلِّغْتَهَا — قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعى إلى تَرْجُمَانِ

فقوله : (وبلغتها) جملة دعائية أريد بها تعطيف قلب الممدوح .

٦ — الاحتراس : وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم .

كقول طرفة بن العبد :

فَسَقَى دِيَارَكِ — غَيْرَ مُفْسِدِهَا — صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِى

لما كان دوام المطر مما يسبب الخراب ، دفع هذا الوهم بقوله (غير مفسدها) .

وكقول ابن المعتز يصف الخيل :

صَبَبْنَا عليها — ظَالِمِينَ — سِيَاطَنَا فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ

دفع بقوله (ظالمين) ما قد يتوهم من أنها كانت بطيئة السير ، لا تجرى إلا بالضرب .

وكقول عنترة :

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ فَإِنَّنِي سَهْلٌ مُخَالَفَتِي ، إِذَا لَمْ أُظْلَمِ

فقوله (إذا لم أظلم) احتراس ، دل به على أنه قد يُخَالَفُ فيرجعُ إلى الحق راضياً ، ولكنه لا يَقْبَلُ ظُلْماً وَلا هَضْماً .

٧ — التتميم : وهو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة كمفعول ، أو حال ، أو تمييز ، أو جار ومجرور ، لفائدة . كالمبالغة فى المدح فى قوله تعالى : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرًا » ؛ فإن إطعام الطعام على حبِّهم له وحاجتهم إليه ، أدل على الكرم مما لو كان عن غنى .

ومن هذا قول زهير :

مَنْ يَلْقَ يَوْماً عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِماً يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقَا

فقوله (على علاته) أى على كل حال من غنى أو فقر ، تتميم جميل .

وهناك أنواع أخرى من الإطناب ، كما تقول فى الشىء المستبعد : رأيته بعينى ، وسمعته بأذنى ، وذقته بفمى ؛ تقول ذلك لتأكيد المعنى وتقريره . وكقوله تعالى : « خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ »

والسقف لا يَخِرُّ إلا من فوق ، ولـكنه دل بقوله (من فوقهم) على الإحاطة والشمول . وكقوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ » ؛ فإن القلب لا يكون إلا فى الجوف ، ولـكن فى ذكر الجوف مفرداً تأكيداً لنفى وجود القلبين ؛ لأن كل قلب يحتاج إلى جوف ، فمتى ثبت أن الجوف واحد ثبت أن القلب لا يكون إلا واحداً . فتنبه إلى هذا النوع من الإطناب البديع حتى لا يلتبس عليك بالحشو .

(وبعد) فقد قَدَّمْنَا لَكَ أن مَرْجِعَكَ فى إدراك أسرار البلاغة إلى الذوق الأدبى ، والإحساس الروحى ، وأنت فى هذا محتاج إلى الإكثار من القراءة والتفهم ، أكثر مما تحتاج إلى القواعد . ولنضرب لك مثلا قول النابغة الذبيانى :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا وَعَلَّمَتْهُ الْـكَرَّ وَالْإِقْدَامَا

أتراه لو قال نفس عصام سودته ، يكون قد جاء فى مدحه بمثل ما تجده فى الإظهار ، من تعظيم لشأن الممدوح ، بذكر اسمه مرة بعد مرة ، حتى كأنما ذكر اسمه فخر له ، وشرف كبير .

ذلك جمال فنى ، لعلك تجد ريحه فيما تقرؤه وتسمعه من رائع الشعر ، فتكون قد أشرفت من اللغة على كنوزها ، وتفتحت لك أصدافها عن لآلئها .

تمرينـــات

(١)

بين ما فى الأمثلة الآتية من حشو أو تطويل :

(١) قال بعض الشعراء :

صُدُودُكُمْ وَالدِّيَارُ دَانِيَةٌ أَهْدَى لِرَأْسِى وَمَفْرِقِى شيبا

(٢) وقال آخر :

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ فِى دَوْلَةِ امْرِىءٍ نَصِيبٌ وَلاَ حَظٌّ تَمَنَّى زَوَالَهَا

(٣) وقال عنترة :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

(٢)

فى الأمثلة الآتية إيجاز فعين نوعه ، وإذا كان إيجاز حذف فعين المحذوف :

(١) قال تعالى :

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ✲ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ . »

(٢) وقال تعالى :

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِين . »

(٣) وقال تعالى :

« وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ✲ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ✲ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ✲ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ✲ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ✲ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَة . »

(٤) وقال تعالى :

« وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لقومِه فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا . »

(٥) وقال تعالى :

« وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مرةٍ . »

(٦) وقال تعالى :

« فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ . »

(٧) وقال تعالى : « فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ . »

(٨) وقال صلى الله عليه وسلم : « الضَّعِيفُ أَمِيرُ الرَّكب . »

(٩) وقال أبو تمام :

وَأَخَافُكُمْ كَيْ تُغْمِدُوا أَسْيَافَكُمْ إِنَّ الدَّمَ الْمُغْبَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ

(١٠) وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون ، بعد أن هزم جند عيسى بنِ مَاهَانَ وقتـــله :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يَدَىّ ، وخاتَمهُ فى يَدِى ، وعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تحتَ أمْرِى ، والسلام . »

(١١) وسأل الحجاج الثَّقَفِيُّ أبا الحسن المدائنى عن أبناء المهلب بن أبى صُفْرَةَ ، فقال :

« هم أحْلاَسُ القتال بالليل ، حُماة السَّرْح بالنهار . » قال الحجاج : « أَيُّهُمْ أفْضَلُ ؟ » قال : « هم كَحَلْقَةٍ مُفْرَغَةٍ لاَ يُعْرَفُ طَرَفَاهَا . »

(١٢) ومما أثر من كلام العرب : القَتْلُ أنْفَى لِلْقَتْلِ .

(٣)

فى الأمثلة الآتية إطناب ، فبين نوعه والغرض منه :

قال تعالى :

(١) « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُم . »

(٢) « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيم . »

(٣) « لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ . »

(٤) «قلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ ما عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ . »

(٥) « قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ . »

(٦) « قَدْ كَانَت لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ؛ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ . »

(٧) « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي . »

(٨) قال الحطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

(٩) وقال الشريف الرضى :

وَكَيْفَ وَفُورُ الْعِرْضِ وَالْمَالُ وَافِرٌ ... وَمَنْ يَخْزُنِ الْأَمْوَالَ يُنْفِقْ مِنَ الْعِرْضِ

(١٠) وقال حسان بن ثابت :

أَصُونُ عِرْضِي بِمَالِي لَا أُدَنِّسُهُ ... لَا بَارَكَ اللهُ بَعْدَ الْعِرْضِ فِي الْمَالِ

أحتال للمال إن أودى فَأَكْسِبُهُ ... ولست للعرض إن أودى بمحتال

(١١) وقال الأضبط بن قُريع :

قَدْ يَجْمَعُ الْمَالَ غَيْرُ آكِلِهِ ... وَيَأْكُلُ الْمَالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهْ

(١٢) قال أبو تمام :

كريم سجاياه تُضِيفُ ضُيُوفُهُ ... وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سائله

(١٣) قال أبو العتاهية :

إِنَّ الْبَخِيلَ وَإِنْ أَفَادَ غِنًى ... لَتُرَى عليه مَخَايِلُ الْفَقْرِ

(١٤) وقال أيضاً :

لِكُلِّ امْرِئٍ رَأْيَانِ رَأْيٌ يَكُفُّهُ ... عَنِ الشَّيْءِ أَحْيَانًا وَرَأْيٌ يُنَازِعُ

ومَن كَانَت الدُّنْيَا هَوَاهُ وَهَمَّهُ ... سَبَتْهُ الْمُنَى وَاسْتَعْبَدَتْهُ الْمَطَامِعُ

(١٥) وقال قابوس :

يَاذَا الَّذِي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيَّرَنَا ... هَلْ عَانَدَ الدَّهْرُ إِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ

أَمَا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ ... وَيَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ الدُّرَرُ

وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ ... وَلَيْسَ يَخْسِفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(١٦) وقال امرؤ القيس :

وَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لأَدْنَى مَعِيشَةٍ ... كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ

وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ ... وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

(١٧) وقال عدى بن زيد وهو فى حبس النعمان يخاطب أخاه :

فَلَوْ كُنْتَ الأَسِيرَ وَلاَ تَكُنْهُ ... إِذاً عَلِمَتْ مَعَدٌّ مَا أَقُولُ

(١٨) وقال البحترى :

إِنَّ السَّحَابَ أَخَاكَ جَادَ بِمِثْلِ مَا ... جَادَتْ يَدَاكَ لَوَ أَنَّهُ لَمْ يَضْرُرِ

(١٩) وقال ابن المعتز :

إِنَّ يَحْيَى لاَ زَالَ يَحْيَا صَدِيقِي ... وَخَلِيلِي مِنْ دُونِ هَذَا الأَنَامِ

(٢٠) وقال أيضاً

جَدَّ الزمانُ وَأَنْتَ تَلْعَبْ ... وَالْعُمْرُ فى لاَ شَىْءَ يَذْهَبْ

كَمْ قَدْ تَقُولُ غَدًا أَتُو ... بُ غَدًا غَدًا والموتُ أَقْرَب

(٢١) ولابن عباد :

قلْ لِأَبى الْقَاسِمِ إِنْ جِئْتَهُ ... هُنِّيتَ مَا أُعْطِيتَ هُنِّيتَهُ

كلُّ جَمَال فَائقٍ رَائقٍ ... أَنْتَ بِرَغْمِ الْبَدْرِ أوتيتَهُ

(٢٢) وقال الطُّغرائى :

أَخَاكَ أَخَاكَ فهو أَجَلُّ ذخْرٍ ... إِذَا نَابَتْك نَائبَةُ الزَّمَانِ

تُرِيدُ مُهَذَّباً لا عَيْبَ فيه ... وهَلْ عُودٌ يفوحُ بلا دُخَانِ

(٢٣) وقال جرير :

فسقاكِ حَيْثُ حَلَلْت غير فقيدة ... هَزِجُ الرياح وديمَةٌ لا تُقْلِعُ

(٢٤) وقال آخر :

ومالى إلى ماء سوى النيلِ غُـلَّةٌ ولو أنه ، أستغفر الله ، زَمْزَمُ

(٢٥) وقال آخر :

إن المليكَ أَدَامَ اللهُ دَوْلَتَـهُ قد مَكَّنَ الدينَ والدُّنيا لِأُمَّتِـهِ

الْعِـلْمُ دَامَ لَهُ يَزْهُو بروضته والخَيْرُ مُلْتَمَسٌ من بَطْن رَاحَتِه

تم الكتاب بعونه تعالى

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
البـــــلاغة	٣
مراتب البـــلاغة	١٤
أمثلة لمطابقة الكلام لمقتضى الحال	١٦
أمثلة للكلام البليغ ، وتحليل ذلك ونقده	١٧
تمـــرين	٢٥
ا — من النـــثر	٢٥
ب — من النـــثر	٢٨
الأســـلوب	٣٢
مطابقة الأسلوب لمقتضى الحال	٣٨
صفات الأسلوب الجيد	٤١
تقسيم الأسلوب إلى خبرى و إنشائى	٥٠
أساليب الخبر واستعمال كل منها فى الموضوع الملائم له	٥١
أغراض الخبر	٥٣
تمرينـات	٥٥
أساليب الإنشاء : تقسيمه إلى طلبى ، وغير طلبى	٦٦
تمـــرين	٦٧
أسلوب الأمر	٦٩

الموضـــوع الصفحة

تمرينات ٧١
الأغراض البلاغية التى يخرج إليها أسلوب الأمر ٧٢
تمرينات ٧٥
أسلوب النهى ٧٩
الأغراض التى يخرج إليها النهى ٨٠
تمرينات ٨٢
الاستفهام ٨٦
تمرينات ٨٧
الأغراض التى يخرج إليها أسلوب الاستفهام ٩٢
تمرينات ٩٧
أسلوب التمنى ١٠١
تمرينات ١٠٣
أسلوب التقديم والتأخير ١٠٥
تمرينات ١٠٧
أسلوب الذكر والحذف ١١٠
تمرينات ١١٥
الإيجاز والإطناب والمساواة ١٢٠
المســـــاواة ١٢١
الإيجاز ١٢٢
الإطناب ١٢٦
أنواع الإطناب ١٢٨
تمرينات ١٣٥